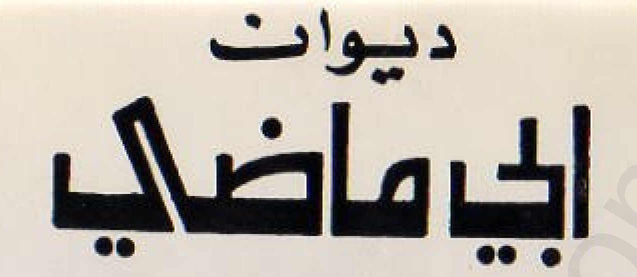


دار العودة بيروت

ديوان

إيليا أبو ماضي

دار العودة . بيروت

تصدير الكتاب

بقلم

الدكتور سامي النعمان

بعد ثلاثة عشر عاماً ، أعود الى هذا الشعر ، وأنا حزين أسيف ، لأقلب هذه النسخة الأنيقة ، في ورق كزرقة السماء ، وحروف ترتجف أمام عيني كما ترتجف النيازك وهي هابطة محترقة بلهب الوداع ، تغادر النجوم في الأعالي ، لتختلط برماد الأرض .

أجل ، بعد ثلاثة عشر عاماً ، أعود إلى هذه النسخة لأنظر في أسىً ووفاء إلى هذا الاهداء الذي صاغته أنامل الشاعر بحروف مائلة متسقة كاتساق الخطوط في لوحة الفنان ، فأرى فيها عبق الوفاء وجمال التواضع . وتطير بي الذكرى إلى سنين خلت كنت ألقى فيها هذا الطالب الشاب فأرى فيه شاعراً يطاول بطموحه كبار الشعراء ، يتمتم بالنظم كما يتنفس بالهواء ، زفرة بعد زفرة ، ضاحك السنّ ، يخفي في صدره مسحة حزينة ، كأنها بقايا الندوب خلفتها جراح الأيام في ضلوعه الفتية أو زرعتها قراءة الشعر الباكي في صدره الغضّ ، فقد كان يميل الى المعرّي كل الميل ، وينزع إلى ايليـــا أبي ماضي كل النزوع ، ويقرأ لأبي نواس كلّما هزّه الشوق الى الفن .

ومـــا أزال بعد هذه السنين ، وأنا أقلب هذه النسخة الجميلة — وهي شعره الوحيد الذي نشره — ألمح صور الندوب ماثلة في كل منعطف ، وأراهـا في كل زاوية من زواياه ، يلفها الشك والريب ، وتدور فيها مأساة الحياة ، فهي في نظره خادعة كاذبة ، والناس فيها يعيشون على وهم براق ، وسراب لامع ، فتنظم فيها

الشعر على مشاهد تمثيلية ، يطول المشهد حيناً ، ويقصر أحياناً ، فهو في مشهد يصور شهرزاد وحبيبها ، وقد ألحت شهرزاد أن ترى طيفه فحسب بعد ان ملّت « وجوده » . وفي مشهد آخر يرسم جنديّين في المعركة آثر أحدهما الفرار ، وأقنعه زميله بالعزة والموت ، وفي مشهد ثالث لقاء بين فتى وفتاة ، وفي مشهد رابع يرسم المارد والانسان ، ويحمل عنوان المشهد : « كافر ، وحي شيطان مَريد » ، وهذا العنوان نفسه جعله عنوان هذه المجموعة الشعرية كلها ، وأصدرها مطلع سنة ١٩٤٨ . ولن أطمع في الكلام على ما بعده من مشاهد فهي كثيرة ، بسطها صاحبها صورة لشاعريته ، ورمزاً لديوانه الذي دفن معه ، فأنقذ منه هذا النزر اليسير ليدل على شعر كثير ، وقريحة متدفقة ، وكهولة في النظم ، وعمق في التفكير ، وبُعد في التلوين .

وهذه النسخة الجميلة وحدها دليلي الى صاحبها الشاعر المرحوم زهير ميرزا ، فهي تغصّ بالألم والعبرة والحزن ، وتنبض بالحيرة والشك والريب ، تقتتل على أبياتها الأسئلة المحيّرة : لماذا جئنا الى الدنيا؟ وكيف جئنا؟ وما هو غدنا؟ وكيف نفهم أسرار الحياة ؟ وما هي المرأة والرجل ؟ ولماذا كان الزواج ؟ ...

والعجيب أن هذه الأسئلة راودت أفكار بعض القدماء في الشعر العربي ، ولكنها تعلقت في المعاصرين بشعر أبي ماضي وتعلّق بها ، فسالت في قوافيه ، وعرف بها وكان من أثرها شعر كثير في لبنان وغير لبنان . وكان لها في سوريا طلاب ومريدون ، من أقربهم إلينا الشاعر زهـير ميرزا ، فهو يكررها في معانيه ومبانيه ، ويردّد علينا كلمات الوهم والملل ، ويرى الزواج قيداً ، بل يقول : « ان الزواج المجلوب مقبرة الحسّ » ، ويختم هذه المجموعة بقوله على لسان أحد الابطال في مسرحية بجماليون :

عبثاً نطلب الخلود بني الموت ... فمن كان للردى ليس ينفعُ
كلنا حـاول الصعود تعالى وتعالى وسوف ينكبّ أجدعُ

طينة نحن ... ليس يعلو عليها واذا كان فالنهى قد يُخدَعُ
عد كما كنت للتراب ولا ترجع وكلّ لأصله سوف يرجـعُ

ولن نقف عند هول المأساة ، وحديث الغيب المجهول في صدر الشاعر ، ولن نتحدث عن نهاية الشاعر الشاب حين صعد في طيارة كما صعد فوزي المعلوف ، ولكنه سقط من الأعالي مع الحطام ، وهو يحاول بلوغ السماء ، فأصبح بعد قليل من بني الموت ، ورجع الى التراب الذي نشأ منه ... فذلك حديث عن حياته ليس مكانه هنا ، وانما سقنا الكلام عن شاعريته لنفتش عن خيوط الشوق بين الشاعر الفقيد وبين ديوان أبي ماضي .

لقد رأينا انه كلف به وأحبه ، وسار في طريق صوره ومعانيه ، وساقه هذا الحب إلى أن يُعنى بديوانه ، وأن يقدّم بين يدي ذلك بدراسة واسعة تقارب التسعين من الصفحات ، نشرت سنة ١٩٥٤ ، وهي أوسع ما صدر عن أبي ماضي حتى ذلك الحين ، فخدم بذلك حبيبه الشاعر خدمة كبيرة . وأضاف إلى هذه الخدمة يداً خيّرة حين وفّر لبلده ديوانه المطبوع في نيويورك سنة ١٩١٦ ، وقد كان هذا الديوان محجوباً عن مطابع الشرق العربي ، لا يكاد القراء يصلون إليه لندرته ، وغفلة الناشرين عن مقامه .

وبهذه الدراسة وهذا الديوان طاف أبو ماضي على قرائه وعشاقه بكأس قديمة جديدة ، أضيفت إلى كأسه في الجداول والخمائل ، وهذان الديوانان وحدهما كانا السائرين بين الناس في الشرق .

ولست في حاجة الى الاشادة بهذه الدراسة وهذا الشعر ، فهما بين دفتي هذه الطبعة الثانية ، يستطيع القارىء ان يستمتع بهما ، وان يجد عندهما ما يروي غليله ، ويشفي ما بصدره من شوق الى هذا الشعر المجنح والكلام العميق والصور البعيدة التي كان يرسلها الشاعر ابو ماضي .

ويكفي ان اسجّل هنا للتاريخ والذكرى اعجاب الصديق الشاعر ايليا ابي ماضي بهذه النشرة، وقد حملتها حين نزلت ضيفاً عليه، بمنزله الرحب في «بروكلين» قرب نيويورك سنة صدورها، فقد فرح بها أشدّ الفرح، لانها كانت أولى الدراسات التي صدرت عن دمشق والقاهرة بهذه الاناقة، واذكر انه قدّم لي دراسة عيسى الناعوري عن «ايليا أبو ماضي رسول الشعر الحديث» لأوازن بين الدراستين.

وقضينا ساعات استمتع بشرح الشاعر لما كان منه في ديوانه قبل اربعين سنة، وعيناه تضحكان للذكرى، واساريره تنفرج للتقدير، حتى لقد احسست كأنّ الفرح يطلق لسانه بالتغريد الجميل، والثناء العاطر، لهذه اليد تضيفها دمشق فوق يدها عليه بتكريمه في مدرج الجامعة السورية. فقد كان – يرحمه الله – يعتز بذلك التكريم وقد هبت دمشق كلها ترحب بمقدمه، وتزحف للقائه، وتنشد بين يديه الشعر والنثر، وقد وقف بقامته القصيرة يرسل درة من درره، يعدّها جوهرة ديوانه.

ان هذا التوفيق البارع في دراسة الشاعر المرحوم زهير ميرزا للشاعر ابي ماضي، وهذا الجمع الجميل لشعره المفقود هو السبب اذن في نفاد الطبعة الاولى التي اصدرتها دار اليقظة العربية مشكورة.

وقد ارادت دار اليقظة العربية ان تزيد في احسانها، وان تبالغ في خدمة الشاعر ابي ماضي، فأضافت بعد ست سنوات ما فاتها من شعره، وضمّت ديواناً اصبح اليوم من النوادر، لا يكاد يعرفه الدارسون والباحثون، ذلك هو ديوانه الاول، وعنوانه: «تذكار الماضي» نشره في الاسكندرية سنة ١٩١١، في خمس وثمانين صفحة، يمثل شباب الشاعر وخطاه الاولى، ويصور نشأته، ومدرسته، وتأثره بشعر من قبله. فقد حاول المختصون ان يفهموا هذا، ولكنهم عادوا خائبين، فلم يقعوا على «تذكار الماضي».

والشاعر المرحوم زهير ميرزا نفسه كتب في مقدمة الطبعة الاولى (ص ز)

عن هذا الديوان قال: «جمعه في شبه ديوان، أسماه تذكار الماضي، وطبعه في الاسكندرية. واني آسف أشد الاسف لانني لم استطع الحصول عليه. وبالتالي لم أطلع عليه لاتتبع الشاعر منذ نشأته الشعرية الاولى إلى الآن». وهذا القول ساق الدارسين بعده إلى عبارات شبيهة بما قال. فردّدت الاديبة نادرة سراج الدين قوله في كتابها عن الرابطة الادبية، وقال غيرها مثل قولها في دراساتهم عن الشاعر.

وقد كانت سعادتي عظيمة حين وقعت على نسخة هذا الديوان، فاستمتعت بها فيما أذعت من حديث وما أرسلت من كتاب، ودفعت بها إلى هذه الدار، لتتم خدمتها، وتكمل يدها، فسارعت الدار مشكورة لتجعل ذلك بين أيدي قرائها، ولتقدمها باقة على ضريح الناشر الاول الشاعر الفقيد زهير ميرزا، لتقر روحه بها في الممات، بعد ان حرمت منها في الحياة.

فالى روح الشاعر الشاب هذا الورد العبق ذكرى لعمر قصير عاش كما يعيش الورد، والى الشاعر أبي ماضي وفاء الصداقة والذكرى.

الدكتور سامي الدهان

دراسة

عن

ايليا أبو ماضي

شاعر المهجر الأكبر

للشاعر الفقيد

زهير ميرزا

هجرة :

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي المنصرم أحداثاً في الحياة الاجتماعية والسياسية كان لها الاثر القوي في جعل هذه الفترة نقطة الانطلاق نحو عصر النهضة الذي نعيشه الآن .

وما من ريب في أن العصر المظلم[١] الذي جثم فيه الحكم التركي على صدر البلاد العربية طوال أربعة قرون كان له أبعد الاثر في قتل كلّ موهبة ادبية وقتل كلّ فكرة علمية، حتى عادت الامة العربية وهي صفر اليدين من كل أدب وعلم، لولا هذه البارقات التي كانت تلوح بين حين وحين مشيرةً إلى امتداد عصر الانحطاط إلى تلك الفترة ؛ حتى إذا أطلّ خديوي مصر « محمد علي » ومدّ يده إلى الامير بشير الشهابي[٢] متلاقيين في تحالف واتفاق ، وجد السوري واللبناني من ذلك نافذةً يحاول ان يُطلّ منها على عالم غير عالمه السابح في دياجير الظلم والظلمة ، ظاناً ان في انطلاقه عن بلده انطلاقةً من سجنه الرهيب وانفلاتاً من يومه البغيض الكئيب ؛ ومن هنا كان الانطلاق الاول من سورية ولبنان إلى مصر ، وكانت الهجرة الاولى .

ويرى المؤرخون المتتبعون ان اسباب الهجرة اللبنانية إلى امريكا اكثر من ان يُحصيها عدٌّ ، وهم مع هذا يشيرون إلى أهم تلك الاسباب فيرون ان وجود الإرساليات التبشيرية الامريكية من اقوى تلك الاسباب ؛ ويرى مؤلفوا كتاب

---

١ – عام ١٥١٦م الى عام ١٩١٨م ... فانظر !

٢ – من عام ١٨٣١م – ١٨٤٠م وهي الفترة التي حكمت فيها مصر سورية على يد ابراهيم باشا .

« الوجيز في الأدب العربي »[١] ان الغرب قد (... « استند في القرون الوسطى إلى الفكرة الصليبية لاستعمار الشرق ، لكن الإسلام كان يرده » وبعد فتح امريكا تحولت أساليب الاستعمار من وسائله العسكرية إلى اساليب دعاية ودس على الحكام المشارقة ، مسلمين وغير مسلمين ، ومنحت كبريات الدول الاوروبية في الشرق المدارس والمستشفيات وبثت الجمعيات ، حتى غدا لكل مذهب دولة .

ولقد كان نصيب لبنان من هذه البعثات كبيراً[٢] إذ تعهد لويس الرابع عشر بتعليم أولاد « الموارنة » في المدرسة اليسوعية بباريس مجاناً ، وأسس البابا غريغوريوس الثالث مدرسة خاصة بالموارنة في روما اخرجت كثيراً من الكهنة والقسيسين ، بعضهم عاد إلى بلاده ينشر علوم الغرب ويبث محبته في النفوس ، وبعضهم الآخر بقي في اوروبا ... ») .

ومن أهم تلك الإرساليات الجامعة الامريكية في بيروت[٣] ، اذ أسستها إرسالية « بروتستانتية » عام ١٨٦٦ م ؛ ثم تبعتها جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت ايضاً عام ١٨٧٤ م .

ولا علينا اذا أشرنا الى ان اول مطبعة تأسست في لبنان إنما كانت مطبعة الجامعة الامريكية[٤] ، لان في ذلك دلالة على الرسالة التي كان على تلك الارساليات ان تؤديها .

---

١ – هم الدكتور جميل سلطان والدكتور ابراهيم الكيلاني والاستاذ حنا نمر والدكتور ممدوح حقي ، وقد خرج الكتاب في طبعتين ، كانت الثانية على يد دار اليقظة العربية في اواخر سنة ١٩٤٦ م .

٢ – راجع مقالة الاستاذ أحمد سراج الدين « الحركة التربوية » – مجلة الابحاث اللبنانية – عدد ايلول ١٩٥١ ص ٣٢٦ .

٣ – يحسن الرجوع في هذا الموضوع الى البحث القيم الذي وضعه الاستاذ محمد يوسف نجم ونشره في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » طبعة القاهرة ١٩٥٢ ص ١٦ – ٢٠ .

٤ – راجع المصدر السابق ص ٨٠ ، اذ يرى أن أول مطبعة إنما هي مطبعة الشوير (١٤٨٠ م) والثانية في دير القديس جاورجيوس بيروت ١٧٦٠ م ص ٨٠ وما بعدها .

ويضيف الأستاذ نصر[١] الى أسباب هجرة اللبنانيين إلى أمريكا زيارة امبراطور البرازيل « الدون بدور الثاني » لفلسطين ولبنان عامي ١٨٧٧ و ١٨٨٧ م ، إذ يعتبرها فاتحة اتصال بين لبنان وبين أمريكا ؛ وكذلك الثورة العرابية التي سببت هرب أكثر اللبنانيين من مصر[٢] إلى ما وراء البحار ؛ ويأتي السبب الأخير وهو فقر لبنان ، فيقول[٣] : « وزد على ذلك أن كل تحويل مالي يرسله أحد المهاجرين الى ذويه ، أو كل قصر يشيده على سفوح لبنان مهاجر عائد اليه ، كان يدفع بعشرات الشبان الى النزوح عن لبنان[٤] » .

ولا يفوتنا أن نشير الى كلمة أوغست أديب باشا في موضوع اسباب الهجرة إذ نراه يقول[٥] : « السبب الأول في مهاجرة الألوف من اللبنانيين الذين في عنفوان العمر كل عام ، تلك المهاجرة التي خفضت عدد سكان لبنان الى ثلاثة أخماس ما كان يجب ان يكون في احوال عادية ، هو القانون الاساسي الذي وضع سنة ١٨٦٢ و سنة ١٨٦٤ ، فان اشد ضرر جلبه على لبنان ، الذي إنما وضع لأجل نفعه ، هو حصره ذلك الجبل في حدوده الحالية ؛ لأنه لو كان وضع هذا التحديد على قاعدة الحق والعدل والسياسة البصيرة ، فضمت الى لبنان الاراضي والثغور البحرية التي هي ملكه من أوجه كثيرة ، لكان القسم الاكبر من تيار هذه المهاجرة قد تحول الى أراضي خصبة ، هي الآن مهملة ، والى مدن عامرة في وسع اللبنانيين أن يطلقوا العنان لنشاطهم فيها ؛ بل مـا كنا رأينا ذلك المشهد

---

١ – في كتابه « النبوغ اللبناني » صدر في حلب (سورية) عام ١٩٣٨ م .

٢ – بعد ان نزحوا اليها أيام الاتفاق بين الخديوي محمد علي والأمير بشير الشهابي .

٣ – ص ١٨ من كتاب « النبوغ اللبناني » . ويذكر في الحاشية ان عدد المهاجرين في الولايات المتحدة بلغ ١٢ الفاً .

٤ – المرجع السابق ، وكذلك راجع كتاب « المهاجرة اللبنانية » ص ١٠ لميشال شبلي .

٥ – أوغست أديب باشا في كتابه « لبنان بعد الحرب » ، نقله الى العربية الشيخ فؤاد حبيش ص ١٠٤ واقتبسه الاستاذ محمد نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » ص ٨٤ – ٨٥ :

المؤلم ، مشهد أناس في ضنك شديد من العيش ، يرمون من أعالي صخورهم نظرات اليأس الى من عند سفح جبلهم من السهول الواسعة الخصبة ، التي يقصيهم عنها اختلال الأمن واستبداد الحكام العثمانيين ومرض الارتشاء (الرشوة) المنتشر فيها .

وسبب اقتصادي آخر لهذه الهجرة، هو امتلاك اصحاب الاقطاعات الاراضي الزراعية في الجبل، فقد كان الفلاح اللبناني احياناً، خصوصاً في القرن الماضي وفي مستهل هذا القرن، عرضة لظلم صاحب الأرض من اصحاب الاقطاعات، يستبيح هذا اتعابه ، ويصده عن التقدم في المجتمع ، فكان هنالك التفاوت من الوجهة الاقتصادية وعدم المساواة من الوجهة الاجتماعية » .

ويذكر الاستاذ محمد يوسف نجم[1] دافعاً آخر للهجرة هو الدافع السياسي « وهو ضغط حكومة الآستانة على رعاياها ولا سيا غير المسلمين منهم[2] والسبب في ذلك انها بضعفها وتهالكها آونة ذاك كانت تخشى كل حركة تحريرية تبدو بوادرها بين الشعب وتحاول خنقها في المهد ؛ لذلك كانت تأخذ بالشبهة وتجرم البريء لاضعف الشكوك ، مما جعلهم يحاولون زحزحة عبء هذا الضغط عن كواهلهم بالمهاجرة إما الى مصر ، حيث مجال العمل اوسع واكثر إظهاراً للكفاءات ، وحيث يتمتع الناس بحرية أكثر ؛ او الى اوروبا او أمريكا حيث يتنشقون عبير الحرية المنعش » .

هذا بعض رأي الذين يُعنون بشؤون التاريخ في أسباب الهجرة . ولعله من الواجب ان نسأل الشاعر عن أسباب هجرته ، لانه واحد من هذه الآلاف التي نزحت عن ديارها لتستقر في أرض الثراء الموعود ؛ وإنما نجد الجواب عند الشاعر الكبير ، إذ نراه يتحدث عن وطنه – لبنان – في قصيدة مطولة فينعي عليه انه

---

١ – أرغست أديب باشا في كتابه «لبنان بعد الحرب»، نقله الى العربية الشيخ فؤاد حبيش ص ١٠٤ واقتبسه الاستاذ محمد نجم في كتابه «القصة في الادب العربي الحديث» ص ٨٤ – ٨٥ .

٢ – سنجد أثر هذا الضغط في شعر الشاعر، وسنجده يحمل حملات منكرة، شديدة، عنيفة، على الاتراك ويصفهم بأشنع ما يمكن ان يوصف به قوم وتتسم به أمة منحطة .

رازح تحت أعباء الاستكانة الى الشقاء وعدم التطلع الى العلاء، وانه كالعبد الذي ألف العبودية والذل فما هو بتاركها ابداً ، وانه يئد المصلحين ويكتم أنفاس الاحرار ، ويخنق صوت الاديب ويُعلي شأن الجاهل ؛ وأدهى الدواهي بالنسبة للشاعر هذه الطائفية البغيضة التي فرقت الأمة ومزقتها شر ممزق . . .

استمع اليه وهو يبين لنا ما كان عليه وطنه أيام نزح عنه :

وطن أردناه على حب العلى   فأبى سوى ان يستكين الى الشقا
كالعبد يخشى ، بعدما أفنى الصبى   يلهو به ساداته ، ان يعتقا
أو كلما جاء الزمان بمصلح   في أهله ، قالوا : طغى وتزندقا ؟
فكأنما لم يكفه ما قد جنوا   وكأنما لم يكفهم ان أخفقا
هذا جزاء ذوي النهى في أمة   أخذ الجمود على بنيها موثقا
وطن يضيق الحر ذرعاً عنده   وتراه بالاحرار ذرعاً أضيقا
ما ان رأيت به أديباً موسراً   فيما رأيت ، ولا جهولاً مملقا
مشت الجهالة فيه تسحب ذيلها   تيهاً ، وراح العلم يمشي مطرقا
أمسى وأمسى أهله في حالة   لو انها تعرو الجماد لأشفقا
شعب كما شاء التخاذل والهوى   متفرق ويكاد أن يتمزقا
لا يرتضي دين الآله موفقاً   بين القلوب ويرتضيه مفرقا
كلف بأصحاب التعبد والتقى   والشرّ ما بين التعبد والتقى

وتراه في قصيدة أخرى يشير الى هذه « البأساء » التي عليها وطنه ؛ فيقول :

أرض آبائنا ، عليك سلام   وسقى الله أنفس الآباء
ما هجرناك ، اذ هجرناك، طوعاً   لا تطيق العقوق في الابناء

يُسأم الخلد والحياة نعيم   افترضى الخلود في البأساء ؟

ويلح على موضوع « البأساء » التي كانت سبب الهجرة فيقول :

شردت أهلك النوائب في الار   ض وكانوا كأنجم الجوزاء
واذا المرء ضاق بالعيش ذرعاً   ركب الموت في سبيل البقاء

*

الشاعر :

هبط الشاعر مصر وله من العمر احد عشر عاماً او تزيد قليلاً [1] وتعاورت عليه حاجات الحياة اليومية من طعام وشراب ، وحاجات الحياة العقلية من علم ودرس اذا به ينصرف لهما معاً فيعمل ويدرس ، ويستغرق ذلك منه قرابة ثماني سنوات كان يقرض خلالهـا بعض الشعر ، جمعه في شبه ديوان أسماه « تذكار الماضي » وطبعه في الاسكندرية ؛ وكيفما دار الامر – كما يقول الاستاذ الجاحظ – فاننا نجد الشاعر وقد أنفق من عمره تسعة عشر عاماً قبل ان يشد رحاله الى امريكا : ويبدو انه لقي بعض التعب ايام اقامته في مصر ، بل بعض الضيم الذي كاد ان يلامسه ، وفي ذلك يقول :

نأى عن ارض مصر حذار ضيم   ففر من العذاب الى العذاب ...

على انه عندما يذكر مصر انما يذكر فيها صحباً طيباً وفياً محضه الود خالصاً .

ويذكر الاستاذ نجدة صفوة ان ايليا أبا ماضي رحل الى مصر « ليتعاطى

١ – يمكن لنا ان نقدر انه ولد في لبنان حوالي ١٨٩١ م في قرية « المحيدثة » ورحل الى مصر عام ١٩٠٢ ومنها الى امريكا عام ١٩١١ م . ارجع الى « بين شاعرين مجددين » لعبد المجيد عابدين – مصر ١٩٥٢ ؛ وكذلك الى « حديث الاربعاء » لطه حسين ج ٣ ص ١٩٣ . وكذلك الى كتاب « ايليا أبو ماضي والحركة الادبية في المهجر » لنجدة فتحي صفوة – بغداد ١٩٤٥ .

التجارة » ، وقد اتخذ لنفسه محلاً يبيع فيه السجائر والدخان وأخذ يستغل اوقات فراغه في المطالعة والدراسة ونظم الشعر الذي اظهر فيه منذ صغره قابلية تنبيء بمستقبله . ووقع عليه الاستاذ انطون الجميّل فرآه يكتب شعراً في الدكان ، فقرأه وأعجب به ونشره في مجلة « الزهور » التي كان يصدرها ... » .

ويذكر لنا الشاعر بإسهاب ، في قصيدته « الميمية » شيئاً هاماً عن اقامته في مصر ، فيتوضح لنا منها ذاك الحنين الصامت لايام جميلة قضاها هناك ، ويتوضح الى جانب ذلك ذاك اليأس من الناس ، بما يدلنا على حالة التناقض التي كان عليها ابان اقامته في مصر ؛ فلنستمع اليه متحدثاً عن ذكرياته في مصر وعن اخلاق الناس في مصر ايضاً ...

يقول :

ليس الوقوف على الاطلال من خلقي   ولا البكاء على ما فات من شيمي
لكن (مصراً) وما نفسي بناسية   مليكة الشرق ، ذات النيل والهرم
صرفت شطر الصبا فيها فما خشيت   نفسي العثار ، ولا نفسي من الوصم
في فتية كالنجوم الزهر أوجههم   ما فيهم غير مطبوع على الكرم
لا يقبضون مع اللأواء أيديهم   وقلما جاد ذو وفر مع الازم

فمن هنا يتبين لنا بعض حال الشاعر أيام اقامته في مصر ، فهو اذ يذكرها يجدها « مليكة الشرق » ، وهو بالتالي قضى فيها شطر الصبا ، وكان مستريحاً الى الفترة الثانية التي قضاها هناك ، فهو يقول : « ما خشيت نفسي العثار » ، حتى اذا ذكر صحبه واخدانه لمع فيها المديح ، « فما فيهم غير مطبوع على الكرم » ...

ولعل هذه القصيدة خير « وثيقة » عن حياة الشاعر في مصر ، لانه لا يكتفي بهذا الذي قاله ، وانما يستمر في مدح مصر طوال خمسة عشر بيتاً يصور مصر خلالها بأنها درة تاج الشرق ، وحاملة علم الشرق ، اما أهلوها :

هيهات تطرف فيها عين زائرها ... بغير ذي أدب او غير ذي شمم

وهو الى جانب أدبهم وشممهم :

أحنى على الحر من أم على ولد ... فالحر في مصر كالورقاء في الحرم

على انه رغم هذا الذي لقيه في مصر فقد نزح عنها الى أمريكا ، ولم يعرف ما كان عليه من نعيم مقيم حتى وصل مهجره ، وهناك أدرك الخطيئة التي ارتكبها بالرحيل عن مصر ، ويصف هذه الخطيئة بأنها « ضلة » فيقول :

ما زلت والدهر تنبو عن يدي يده ... حتى نبت ضلة عن أرضها قدمي !!

مما يدلنا من انه كان « مرتاحاً » خلال اقامته في مصر ، ويؤكد ذلك مـــا أوردناه من احتفاء الاستاذ انطون الجميّل به واهتمامه بشعره ونشره قصيدة له في مجلة « الزهور » .

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، نجده وقد أخذ سمته شطر « أمريكا » ، ولعلها كانت مطمح أنظاره يوم اتجه من لبنان ، واذا أحببنا ان نتقصّى سبب هجرته الى مصر ومنها الى أمريكا أمكننا ان نجد سببين ، فأما الأول فهو ان الهجرة من لبنان الى مصر كانت سهلة ميسورة ، في حين ان المهاجرة عن لبنان الى أمريكا لم تكن ميسورة . ويرى الاستاذ فيليب حتي في كتابه « السوريون في الولايات المتحدة » ان الحكومة العثمانية آنذاك منعت الهجرة الى أمريكا ورفضت اعطاء جوزات السفر للمهاجرين السوريين اليهـــا ، فكان لا بدّ لهم من الحصول على الجوازات للمرور بها الى مصر ، ومصر هي التي كانت مركز انطلاق المهاجرين الى أمريكا[1] . اذن يمكن ان نرد سبب هجرته الى أمريكا الى انها هي التي كانت هدفه وسلك اليها سبيل مصر كرحلة أولى . وأما السبب الثاني ، فهو ما ورد في

١ – ص ٣ من كتابه المذكور .

قصيدته الآنفة الذكر من يأس من خلق الناس ، فلعله كان يقصد مصر ، فلما توهم انها ضاقت به وضاق بها ، وفشلت تجارته ، وجد ان الرحيل أولى به ، فاتجه الى الولايات المتحدة الأمريكية ليستقر في مدينة « سنسناتي » بضعة أعوام ، عمل فيها بالتجارة ، حتى اذا أطلت سنة ١٩١٦ انتقل الى « نيويورك » حيث اجتمع الى جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه ونسيب عريضة ورشيد أيوب ووليم كاتسفليس وعبد المسيح حداد وندره حداد وأضرابهم ليؤلفوا جميعاً فيما بعد هذه الرابطة التي أطلقوا عليها اسم « الرابطة القلمية » ، والتي كان لها فضل نشر مذهب المهاجرين في الأدب والاعلام عن مدرسة أدبية لهـــا خطرها والتي يقول فيها الدكتور محمد حسين هيكل : « يجب ان يتعاون المجدد والمقلد منا ، والا بقي الفوز في جانب السوريين المتأمركين وامحت الثقافة الاسلامية »[1] .

مصادر ثقافة الشاعر :

اذا أحببنا ان نعلم شيئاً عن ثقافة الشاعر لم نجد من المصادر بين يدينا الا شعره ، فهو وحده الذي يدلنا على منابع ثقافته ، ولا بدّ لنا بالتالي ان نستقرىء شعره من جانبين ، جـــانب المعنى ، وجانب المبنى . فمن معانيه نتلمس ثقافته الفكرية ، ومن مبانيه نتلمس ثقافته اللغوية .

ومما لا ريب فيه ان ثقافة الشاعر تختلف من سن الى سن ، فكلما ضرب بسهم في العمر وممارسة النظم والتمرس بالحياة وجدنا ألواناً من الثقافة تتباين بتباين سني النظم ، فاذا حاولنا ان ننظر في دواوين شعره على اعتبار أنها المراحل التي تنبىء عن تطور ثقافته لزمنا أن نكون على علم بمـــا أسماه ديوانه الأول « تذكار الماضي » ، الذي نشره في الاسكندرية أيام اقامته في مصر — ، فـــاذا

١ – السياسة الاسبوعية ، العدد ٢٠٤ الصادر عام ١٩٣٠ في القاهرة باشراف الدكتور هيكل .

جزنا هذه المرحلة ووقفنا على ديوانه الثاني المسمى «ديوان ايليا أبي ماضي – الجزء الثاني –»[١] حق لنا ان نطيل الوقوف وان نقدم أكثر قصائد هذا الديوان كنماذج لما نذهب اليه في هذه الدراسة، ثم نطل على المجموعة الشعرية الثالثة للشاعر وهي «الجداول»[٢] فنقتبس منها قصيدتها الكبرى «الطلاسم» ونستقرئها ثقافة الشاعر ونثبتها كنموذج في هذه الدراسة، ثم نعوج على المجموعة الرابعة وهي «الخمائل»[٣] فنقتطف منها القصيدة الأم وهي «الحكاية الأزلية»، ثم نفتش عما تبعثر من شعر الشاعر في المجلات السائرة، وخاصة «العصبة» فننقل عنها بعض شعر الشاعر الأخير، فاذا اكتمل ذلك بين يدينا – وقد اكتمل – حق لنا ان ندرس ثقافة الشاعر في جميع مراحل حياته المتمثلة في هذه المجموعات الأربع.

ملامح :

اقرأ معي قول الشاعر :

أنا ما وقفتُ لكي أشبب بالطلا   ما لي وللتشبيب بالصهباءِ
لا تسألوني المدح أو وصف الدمى   إني نبذت سفاسف الشعراءِ
باعوا لاجل المال ماءَ حياتهم   مدحاً وبت اصون ماءَ حياتي

١ – طبع هذا الديوان في نيويورك في حدود سنة ١٩١٨ م تقريباً.

٢ – صدر في نيويورك أيضاً في حدود عام ١٩٢٧ م، ثم طبع عدة طبعات في الشرق.

٣ – صدر في نيويورك في حدود عام ١٩٤٠، ثم طبع عدة طبعات في الشرق أشهرها طبعة بيروت ١٩٤٩ م. ويقول الاستاذ الناعوري في كتابه «ايليا أبو ماضي» ص ١٢ (... ولا غرابة في أن يتردد اسم صاحب «الجداول» في الوطن والمهجر بملء الاعجاب، وفي أن يتبارى الناشرون في طبع ديوانه وتوزيعه مرات بغير استئذان المؤلف – وهو ما لا نعرف وقوعه بهذا الشكل عند العرب قبل ديوان «الجداول» – فتنفد جميع نسخه حال ظهورها في الأسواق) اهـ.

لم يفهموا بالشعر إلاّ انه   قد بات واسطة الى الاثراءِ
فلذاك ما لاقيت غير مشبب   بالغانيات، وطالب لعطاءِ
ضاقت به الدنيا الرحيبة فانثنى   بالشعر يستجدي بني حواءِ
شقي القريض بهم وما سعدوا به   لولاهمُ اضحى من السعداءِ

نجد ان الشاعر قد نبذ من اغراض شعره «المديح» و«وصف الدمى» و«التشبيب بالغانيات»، او هكذا يوضح جملة رأيه فيما يريد ان يأخذ به نفسه في منظومه، فهو بهذا قد وضع الاطار العام لشعره على وجه التقريب.

ونحن إذا حاولنا ان ننظر في شعره لنرى «المدرسة» التي تخرج منها نجد الشاعر وقد عاش في إطار من الشعر القديم، والجو القديم، والطابع القديم[١]، لا يكاد يخرج منه، او لا يكاد يقوى على الخروج منه. وآية ذلك هذا الشعر الذي بين ايدينا.

وإذا أحببنا ان نخرج مع الشاعر من لبنان ونعيش معه حياته الاولى في مصر، توضح لنا – من الذين قدر لهم[٢] ان يطلعوا على مجهوده الاول المسمى «تذكار الماضي»، تلك المجموعة، التي كانت باكورة إنتاجه – ان الشاعر كان ضعيف الثقافة، ضعيف التحصيل، ضعيف الاطلاع على مفردات اللغة، ضعيف الإلمام بقواعدها وادواتها ايضاً.

ومن هنا يبدو لنا ان الشاعر نزح عن لبنان وهو على شيء من العلم بالقراءة والكتابة، ثم اخذ يطالع لنفسه مطالعات خاصة يلصقها من بعض فراغ يومه

١ – «ذلك أن أبا ماضي كان في نشأته مولعاً بنظم الشعر على النهج القديم وله ديوان قديم تأثر فيه بأبي العلاء وغيره. ثم انصرف الى الطريقة الجديدة في نظم الشعر ولكنه لم يستطع أن يتخلص من آثار الماضي فعلقت بذهنه أفكار وعبارات من أساتذته القدماء ومن بينهم أبو العلاء». «بين شاعرين مجددين» لعبد المجيد عابدين ص ١٤٨.

٢ – نحتفظ بأسمائهم بناء على طلبهم، وسنذيعها عندما يسمح أصحابها بذلك.

كونت عنده لوناً من ألوان الثقافة التي تتيح له ان يكتب بلغة سليمة بعض الشيء[١] .

حتى إذا كان ارتحاله عن مصر الى أمريكا وجدناه وقد اخذ نفسه بشيء قليل من القسوة ، وبشيء كثير من المرانة حتى استقامت له أداة الكتابة . فلما اخرج ديوانه الثاني – الذي اقتبسنا اكثره في هذه الدراسة – وجدنا لديه من آثار ثقافته اللغوية والنحوية ما هو جدير بالتدوين .

. . .

ليس من اليسير البحث في الشعراء الذين طالع ابو ماضي شعرهم وأغرم بـه واستقى منه نفسه الشعري ايام نشأته الاولى ، وان كنا لا نعدم وجهاً من وجوه الرأي نشير فيه الى انه تتوضح لنا خلال شعره نفحتان دخيلتان ، كما تتوضح نفحة ثالثة أصيلة ، فاذا كنا نرى نفحة نواسية[٢] في بعض شعره ، حاول فيها ان يتلمذ على يدي ابي نواس من حيث طابعه الشعري ومن حيث صوره و «تلويناته» ، فاننا نرى له ايضاً انصرافاً الى ابي العلاء ، يريد ان يجعـل من شعره النموذج الذي يحتذيه[٣] .

فاستمع اليه في قصيدة « يا صاح » تجـد ابا نواس يطل عليك من « بعض » ابياتها :

يا صـاح كم تفاحة غضة يحملها في الروض غصن رطيب

... ...

١ – وهذا لا يعيب الشاعر في مثل هذا العصر الذي درج فيه، وفي غير ذاك العصر، لاننا نعلم – فيما نعلم – أن الكاتب القدير عباس محمود العقاد قد تثقف أول نشأته مثل هذه الثقافة الطائرة يلتقطها ما يقع تحت يديه من كتب .

٢ – كما في قصيدته «يا صاح» .

٣ – تجد ذلك في اكثر شعر التشاؤم المتقبـة منه نماذج لهذه الدراسة . أنظر مثلاً قصيدته «١٩١٣» . وارجع الى كتاب « بين شاعرين مجددين » لعبد المجيد عابدين ص ١٤٨ .

وربّ صفراء كلون الضحى ينفي بها اهل الكروب الكروب
دارت على الشرب بها غادة كأنها ظبي الكناس الربيب
في طرفك الساجي هيام بها وبين احشائك شوق مذيب ...

على انّ هذا لا يُخرجها من شعر الشاعر ومن غريزته ، مثلها كمثل جميع القصائد ، فهي وان كانت من « عمل » الشاعر نفسه إلاّ ان لها اصولاً يمكن ان تردّ اليها ، وكل شاعر في نشأته الشعرية الاولى يحاول ان يجد له استاذاً يتلمذ عليه ويأخذ عن فمه ألف باء الادب والبيان[١] .

وانك لواجدٌ الى جانب هاتين النفحتين نفحات متفرقة لاعلام الشعر العربي في مختلف عصوره ، فأبو ماضي لم يبتدع اول الامر مدرسة من مدارس الشعر ، ولم ينسج على منوال متفرّد ، وانما جرى في حلبة المقلدين وجاراهم في تقليدهم فكان منه ذاك الشاعر الناشىء الذي اخرج للناس ما أسماه « تذكار الماضي » ثم تدرّج في التقدم حتى اخرج للناس ديوانه الثاني ، ويمكن لنا بكلمة واحـدة ان نقول : لقد كان ابو ماضي يعيش بجسمه في القرن العشرين بينما يعيش بعقله وفكره في العصور العباسية السحيقة .

ومظاهر التقليد هي « مصادر ثقافته » في مستهل حياته الادبية من حيث المبنى ، لذا فاننا نجد عنده مثلاً امثال هذه المطالع :

قال في سقوط « ارضروم » :

أعد حديثك عندي ايها الرجل وقل كما قالت الانبـاء والرسل

١ – ولا يخفى أن معظم شعراء النهضة في مصر أيام نزح اليها الشاعر ايليا أبو ماضي كانوا ينتمون لمدرسة التقليد، ويحاولون جاهدين أن يجدوا لهم اساتذة من الادب العربي القديم، ولست تجد شاعراً واحداً استقل برأيه وشعره في مطلع النهضة، كأنما التقليد امتحان للشخصية الادبية، ولابد لتكوينها . يصدق هذا على اسماعيل صبري والبارودي وشوقي وحافظ .

وقال في قصيدة « ١٩١٦ » :

كم قبل هذا الجيل ولّى جيل   هيهات ليس الى البقـــاء سبيل

وقال في « ما للكواكب » :

شوقٌ يروح مع الزمان ويغتدي   والشوق ان جددته يتجدّدُ

وقال في « لمن الديار » :

لمن الديار تنوح فيها الشمائـــل   ما مات اهلوها ولم يترحلوا

وقال في « دموع وتنهدات » :

ألا ليت قلباً بين جنبيّ دامياً   اصاب سلوّاً او اصاب الامانيا

وقال في « العيون السود » :

ليت الذي خلق العيون السودا   خلق القلوب الخافقات حديدا

وقال في « إلى صديق » :

ما عزّ من لم يصحب الخذما   فاحطم دواتك واكسر القلما

فأنت في مثل هذه الامثلة التي قدمتها لا تجد كبير عناء في ردّ الابيات إلى قصائد معروفة في الأدب العربي القديم ، مما يبين لنا ان ثقافة الرجل من حيث شعره كانت تعتمد التقليد اول الامر ، وكأنه اخذ به نفسه ليسلس له القيـــاد وتنقاد له الالفاظ والتركيبات التي تناسب الشعر ، فاذا فرغ من هذه المرحلة وجدت له مطالع على غاية من الجمال والابداع الشخصي .

ولم يقف تقليده عند هذا الحد الذي ذهبنا إليه وإنما اتجه الى تقليد الموشح الاندلسي بمختلف اشكاله والوانه ، وتجـــده يعالج في الموشح موضوعاً من الموضوعات الوطنية الكبيرة ، فاستمع اليه في موشح «أمة تفنى وانتم تلعبون».

أعلى عيني من الدمع غشاء
ام على الشمس حجابٌ من غمام
غاض نور الطرف ام غارت ذكاء
لست ادري غير اني في ظلام

. . .

ما لنفسي لا تبالي الطربا   اين ذاك الزهو اين الكلفُ
عجباً ماذا دهاها عجبـــا   فهي لا تشكو ولا تستعطفُ
ليتها مـــا عرفت ذاك النبا   فالسعيد العيش من لا يعرفُ

لا ابتسام الغيد ، لا رقص الطلاء
يتصباهـــا ولا شدو الحمام
بالكرى عني وبي عنه جفـــاء
أنا وحدي ام كذا كل الأنام

. . .

وكذلك موشحه « مصرع القمر » ومطلعه :

لوعةٌ في الضلوع مثل جهنم   تركت هـــذه الضلوع رمادا

وموشحه « ١٩١٤ » ومطلعه :

طوي العام كما يطوى الرقيم   وهوى في لجة الماضي البعيد

وموشحه « البلبل السجين » ومطلعه :

يا ربّ ليـــل بلا سناء   كأنما بـــدره يتيم

وموشحه «الخلود» ومطلعه :

غلط القائل إنا خالدون كلنا بعد الردى هيٌّ بن بي

فالشاعر في جميع هذه المراحل يحاول جاهداً ان يتلمس طريقه ؛ فقد حاول ان يأخذ بأسباب القصيدة القديمة من حيث فخامةُ ألفاظها وضخامة مطالعها ، ثم عمد الى الموشح فعالجه بشيء من القدرة والتمكن ومارس فيه الموضوعات التي لم يخصص لها الموشح ، ومع ذلك فقد أخضع الموشح لهذا اللون من ألوان التعبير عن مثل هذه الافكار . فثقافة الشاعر في مرحلة نشوئه إنما كانت ثقافة تتكىء على التقليد لتتحسس طريقها الى أسلوبها المتميز الذي سيعرف لها فيما بعد .

وكما أن دواوين الشعراء القدامى كانت بين يدي ابي ماضي وتحت بصره يلقف منها ما يلقف ويترك منها ما يترك دون ان يحاكيها محاكاةً تذهب شخصيته الأدبية — مع عدم تبلورها آنذاك — فقد كان يمارس أساليب القرن الرابع الهجري وعصر الدول المتتابعة من حيث الصياغة ، فتراه يحاول جاهداً ان يلبس شعره ثوب الصنعة البديعية التي تميزت بها هذه العصور بعد ان ضحلت الافكار فيما بعد وعاد الانتاج الأدبي كله من باب الاجترار .

فأنت تجد لأبي ماضي مثل هذه الأبيات في قصيدته «عصر الرشيد» :

أيام تحسدها «العواصم» مثلما حسد «العواطل» اختهن «الحالية»

فهو قصد الى هذا الجناس غير التام «العواصم» و «العواطل» ، كما قصد الى هذا الطباق الايجابي «العواطل» و «الحالية» ثم يقول :

ملك أدال من «الجهالة» «علمه» وأذلّ صارمه الملوك العاتيه

ومشت تطوّف في البلاد هباته تغشى «حواضرها» «وتغشى «الباديه»

ملأ البلاد «عوارفاً» و «معارفاً» والأرض عدلاً والنفوس رفاهيه

فتحضر البادون في أيامه واستأنست حتى الوحوش الضاريه

أعطام صرف «الزمان» «زمامه» أمنوا وما أمن الزمان دواهيه

فأنت تلمس انه قصد هذا اللون من ألوان البديع ، وعمد اليه واراده ، كأنما اراد ان يقتفي آثار من عنوا بهذه الصنعة .

ويقول في موطن آخر :

أمسى سواء «ليله» و «صباحه» شتان بين «الصبح» و «الامساء»

ويقول :

بنت كرم لم يهم فيها سوى كل صب هام فيه الكرمْ

ويقول :

فما «يلمّ» بمن صافاهم «ألمٌ» ولا «يدوم» لمن عاداهم «أمل»

في جفنه أرقٌ ، في نفسه فرقٌ في جسمه سقم ، في عقله دخل

ويقول من باب المجاز اللغوي :

حل الشمس الينا قمر في سماء نحن فيها أنجمُ

والى جانب عنايته بالصنعة البديعية من حيث هذا الطباق وذاك الجناس ، ثم عنايته بالمجاز وما اتصل به ، نجده كان يعتمد «التضمين» ، فيضمن بعض شعره آيات من القرآن الكريم او تعبيرات مشتقات منه ، على طريقة عصر «ابن العميد» أو عصر «الدول المتتابعة» إن لم نردّ هذا العصر الى عصر بني بويه في أعمق جذوره .

واذا كان هذا «التضمين» يدلنا على شيء فانما يدلنا على تلوُّن ثقافة الشاعر

بلون يحاول فيه استعارة اسلوب القرآن الكريم ؛ وسنفتقد هذا اللون الجميل من شعره فيما بعد عندما تتبلور شخصيته ويعيش في أفق « الرابطة القلمية » التي كانت تعنى بكل شيء إلا بالصنعة والأسلوب الكتابي .

أما « تضميناته » فقد قال في حديثه عن حكومة لبنان :

راحت تناصبنا العداء كأنما «جئنا فرياً» أو «أتينا موبقا»

ويقول في مصير بغداد :

واجتاح مجتاح العروش ملوكها «فكأنهم أعجاز نخل خاويه»
أين القصور الشاهقات وأهلها باد الجميع «فما لهم من باقيه»

ثم يتحدث عن الناس في العراق الآن بعد هرون الرشيد فيقول :

مستسلمون إلى القضاء كأنما أخذوا ولمّا يؤخذوا بالغاشيه

ثم يقول في موطن آخر :

ما بال قومي كلما استصرختهم «وضعوا أصابعهم على الآذان»

والأمثلة على ذلك متوفرة لمن يريد ان يستقصيها في شعر الشاعر أيام نشأته الأولى . واذا تقدمت بك المطلعة الى الجداول والخمائل فانك لن تجد هذا اللون واضحاً لأن الشاعر استطاع الانفلات من القيود التي رسف في أغلالها ردحاً طويلا من الزمن استغرق فترة نشوئه وتكونه بتمامها وكمالها ؛ حتى اذا وصل الى أمريكا وانصرف قليلاً قليلاً عن الشرق وأجوائه ألفى نفسه في جو جديد كل الجدة ، ووجد حوله زمرة من الذين يمارسون الكتابة والنظم ، ولم يجد في منثورهم ومنظومهم ما وجده في منثوره ومنظومه ، فحاول شيئاً فشيئاً التخلص من التقليد ، ومن هنا يتلامح لك بعض الشعر الرائع الممتاز حتى في ديوانه الثاني الذي نحن بسببه ؛ وأشهر ذاك هذه القصيدة الرائعة « لم أجد أحداً » و « فلسفة الحياة » و « ابنة الفجر » وأشباهها .

ومن جملة ما تقدم نستدل على ان مصادر ثقافته من حيث الطريقة كانت تمت بأوشج الأواصر إلى مدرسة « الصنعة » في مستهل نشأته الأدبية ، ثم نجد هذه الصنعة وقد ضاعت في زحمة الصور التي أخذ يزخر بها شعر الشاعر عندما انتقل من فترة المرانة والتقليد الى مرحلة الابداع والتبلور عندما انتسب لمدرسة « الرابطة القلمية » ، وكان علماً من أعلامها .

أما ثقافته اللغوية والنحوية في هذه الفترة ، التي كان يخضع فيها لمراحل التكوّن ، فلم تكن لترضي أصحاب اللغة او ترضي أصحاب النحو[1] ؛ وكلّ من التمس العيوب وجدها . على أنّ في بعض ما أحصيناه على الشاعر بعض الدلالة على ثقافته اللغوية والنحوية .

ولا علينا ان نشير إلى مذهبه في اللغة ونظرته اليها من خلال شعره ؛ فاقرأ معي قوله في مطلع ديوانه الجداول (وهو محصلة شعره ورأيه نظراً لتأخر صدوره عن الجزء الثاني) :

لست مني إن حسبت الشعر ألفاظاً ووزنا

فالشاعر بهذا يدلل على عدم عنايته باللفظ — ناهيك عن الوزن — ؛ فهو بالتالي مهمل للفظ لا يحفل له ولا يوليه شيئاً من عنايته ، مما حمل الدكتور طه حسين يعقب على ذلك تعقيباً قاسياً فيقول : « ... فأما إذا قصدنا إلى نقد هذا الديوان — يقصد الجداول — من جهة ألفاظه وأوزانه ، فنحن بعيدون كل البعد عن مثل هذا الرضى ، ونحن مضطرون إلى كثير من التحفظ ، وإلى كثير من السخط ، والى كثير من الضحك أحياناً ... » ويقول بعد[2] في حديثه عن

---

١ — نجده في اكثر الأحيان يميل الى الأخذ بالقياس حتى على الشاذ الضعيف ، فهو من هذا الجانب ينتسب لمدرسة الكوفة في النحو .

٢ — ص ١٩٨ من الجزء الثالث من كتابه « حديث الاربعاء » ، وقد رد على الدكتور حسين الاستاذ عبد المجيد عابدين في كتابه « بين شاعرين مجددين » ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ ، ص ١٢٩ وما بعدها .

قصيدة « الاشباح الثلاثة » من ديوان الجداول : « ... وستلاحظ في الوقت نفسه شيئاً من فساد النحو عند الشاعر يغنينا عن ان نضرب لك الأمثال بما في الديوان من خطأ لا يُحتمل من شاعر مجيد ... » ثم يتابع قوله في شيء من التعميم : « ومصدر هذا كله ان الشاعر لا يُحسن علم الألفاظ والاوزان، وهو يريد مع هذا ان يقول الشعر ... »[١].

ولست أجد مبرراً لهذا التعميم الذي أصدره الدكتور طه حسين في الحكم على ألفاظ الشاعر ومدى إحاطته بعلم النحو : أإذا ندّت عن الكاتب او الشاعر خطيئة او خطيئات في اللغة والنحو حق لنا ان نطلق القول على هذه الشاكلة فنتهم الرجل في لغته وفي نحوه وفي أوزانه فنقول : « ... الشاعر لا يُحسن علم الألفاظ والأوزان »[٢].

على ان مما لا شبهة فيه ان لغة الشاعر لم تكن سليمة كل السلامة أول نشأته الأدبية وحتى بعد ان أصدر ديوانه الثاني، ولم تكن بالتالي فاسدة كل الفساد، وإنما كانت سليمة لا تخلو من خطيئات تدلُّ على عدم تمكن الشاعر من لغته ؛ فنجد عنده مثل هذه الهفوات النحوية واللغوية :

الطود يقرأ في السماء الصافيه سفراً جميل شكله والحاشية

فرفع جميل وحقها النصب على أنها صفة لسفر .

ثم :

ليطرب من شاء أن يطربا فلست بستمطرٍ خلبـا

١ – ص ٢٠٠ ، ج ٣ « حديث الاربعاء » .

٢ – ويرى الدكتور طه حسين في كتابه المذكور ان هذا الضعف في لغة المهجر خاصة أصيلة من خصائصه فيقول : « ولكني حائر حقاً في أمر هذا النحو من الشعر وهذا الفريق من الشعراء . قوم منحوا طبيعة خصبة ، وملكات قوية ، وخيالاً بعيد الآماد ، وهم مهيؤون ليكونوا شعراء مجودين ، ولكنهم لم يستكملوا أدوات الشعر ، فجهلوا اللغة أو تجاهلوها ثم اتخذوا هذا الجهل مذهباً » . ص ٢٠١ ، ج ٣ .

فحق « يطرب » ان تجزم بلام الأمر، ولكنك إن جزمتها بالسكون أفسدت البيت وزناً، وإن حركتها أفسدتَ البيت نحواً، لأنه لا مجال للتحريك ولا داعي له ، فالتمسنا له عذراً بأن حركناها بالفتح على الاتباع ، إلحاقاً بحركة الميم في « من » التي تلتها ...

ونجد ايضاً :

الحشد ملء الدار لكن لم يرَ أحداً سواها[١]

فحق فعل « يرى » ان يجزم بـ « لم » وتحذف بالتالي ياؤه، ولكنك إن فعلتَ ذلك – كما فعله الشاعر – وقعتَ في إفسادِ لوزن البيت إلا إذا أشبعت فتحة الراء، وانت اذا اشبعت فتحة الراء ليستقيم لك وزن البيت تظاهر للسامع انك مخطئ، نحواً لأنك لم تجزم بلم، لم تحذف حرف العلّة . وتتكرر مثل هذه الحالة مرات ومرات في ثني الديوان، وقد تجدها في مثل قوله :

تركت النجم مثلك مستهاما فان تسه سها او تمت ناما

كما تجد في الجداول :

وحطمت أقداحي ولمّا أرتوي وعففت عن زادي ولمّا أشبع

وتجد ضرورة الاشباع في مثل قوله :

إن ترَ زهرة وردٍ فوقها الطلّ قطره[٢]

وقوله :

أيا زهرة الوادي الكئيبة إنني حزين لما صرت اليه كئيب[٣]

١ – مثل هذا الاشباع يجيزه الكوفيون الذين يتوسعون في القياس على الشاذ النادر .

٢ – الجداول ص ٣٦ طبعة مطبعة الزهراء في النجف الاشرف « دون تاريخ » .

٣ – الجداول ص ٨٢ .

وقوله :

فتمين ، للأقدار فيك ملاعب   وفي صفحتيك للنعال ضروب [١]

وتجد الى جانب ذلك هذا اللون من الحذف الذي لا يجيزه الا الكوفيون على ضعف :

ما على من لا يطيــــق يرى   أن في الأرض السهى عشبا [٢]

فهو يريد ان يقول : من لا يطيق ان يرى ، فحذف « أن » في غير موطن حذفها وتجد هذا في قوله :

فاعمل لاسعاد السوى وهنائهم   إن شئت تسعدَ في الحياة وتنعما [٣]

فهو هنا قــد وقع في أمرين ، أولهما انه عامل « سوى » معاملة الاسم فأدخل عليها الألف واللام ، مما لا نعرفه ؛ والثاني انه نصب « تسعد » بـ « أن » أضمرها ، ليستقيم له نصب القافية معطوفة على « تنعما » .

ثم كان لا بد لهذا الشاعر الناشىء بعد ان وصل امريكا وعاش هناك ، يمارس حياة جديدة بالنسبة اليه ويمارس أفكاراً جديدة وأساليب جديدة ايضاً ، من ان يهتم بلغته كما قلنا ويُعنى بها بعض العناية ؛ لذا نجده في الفترة الثانية من حياته في امريكا قد تغير أسلوبه ، إذ اضاف الى مصادر ثقافته ثقافة مدرسة « الرابطة القلمية » ، إذا صحّ أنه تأثر بها ليخرج من الأطر التي كان يعيش فيها .

ولا بد لنا بالتالي أن نقف وقفة قصيرة عند هــذه المدرسة المهجرية الكبيرة التي لمع اسمها كمدرسة أدبية لها خطرها في الادب الحديث .

١ ـ الجداول ص ٨٤ .

٢ ـ الجداول ص ٩٤ .

٣ ـ الجداول ص ٥٠ .

الرابطة القلمية :

ما زال المهاجرون العرب الذين استوطنوا أمريكا في غمرة هــذه الهجرة الكبيرة في مطلع القرن العشرين يشعرون بأنهم عرب رغم « تأمركهم » ، ولقد شعروا بالتالي ان عروبتهم مهددة بالانهيار والضياع في تيار الحياة الامريكية الجديدة التي أخذوا انفسهم بها ، لذا فقــد سارع فريق منهم الى إنشاء المجلات الأدبية والصحف اليومية لتكون صوتهم والدليل فيما بينهم .

ويقول الاستاذ أنيس نصر [١] « وصل المهاجرون اللبنانيون الأولون الى أمريكا منذ قرن كامل تقريباً لا يحملون مالاً ولا يفهمون لغة البلاد التي نزلوا فيها ولا يعرفون شيئاً عن أحوالها وعادات سكانها ، فاعتمدوا على ذكائهم ونشاطهم وإقدامهم وقبضوا ، بعد مرور سنوات قليلة العدد ، على ناصية التجارة ... » الى ان يقول : « ... ولكنهم ذللوا كل صعب وتعلموا لغــة البلاد التي يعملون فيها وانشأوا الصحف اليومية الكبرى في مختلف لغات العالم وأسسوا الصحافة العربية في بلادهم وفي مهاجرهم وما زالوا الى اليوم أمراءها المجلين ... » .

« وقــد ظهرت الصحف العربية جنباً الى جنب مع ظهور اول جالية سورية استقرت في شارع واشنطن » « وصدرت اول صحيفة عربية في الولايات المتحدة عــام ١٨٨٨ م باسم « كوكب أمريكا » وكان يملكها اثنان من اولاد يوسف عربيلي ، واول من حررها هو نجيب دياب الذي أسس فيما بعد « مرآة الغرب » [٢] .

وقد بلغت الجرائد في الولايات المتحدة تسعاً وسبعين جريدة ومجلة [٣] .

١ ـ « النبوغ اللبناني » ص ١٩ و ص ٢٥ نقلاً عن خطبة لشكري الخوري، منشىء جريدة « أبو الهول » في مهرجان يوبيل جريدته الفضي في سانباولو (البرازيل) ١٥ آب ١٩٣٥ م .

٢ ـ كتاب الناطقون بالضاد في أمريكا ، ص ٤٠ واقتبسه الاستاذ نجم في كتابه « القصة » ص ٨٦ .

٣ ـ من احصاء فيليب طرازي في تاريخ الصحافة ج ١ و ج ٢ .

ومن هنا يتبيّن لنا ان الحركة الأدبية في المهجر هي صنيع العقد الثامن من القرن المنصرم ، ولكنها كانت حركة محدودة لم تحسّ لها ركزاً ولم يتنقل صداها من المحيط الذي كانت فيه ، ذلك انها انمــا أنشئت الجاليات العربية الموجودة هناك ، ولم تكن تتسم بأي ميسم مميز بل كانت غايتها اخبارية بالدرجة الأولى ونشر بعض ما يعتلج في النفوس من مألوف الشعر والنثر في الحنين والشكوى وما اتصل بها من اغراض محدودة ...

على أنّ هذا الإطار الضيق الذي كانت تتنفس فيــه اتخذ شكلاً آخر عندما وجد بــين المهاجرين امثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه وايليا ابي ماضي .

على ان من الانصاف لتأريخ الحركة الأدبية في المهجر ان نشير الى ان الذي بعثها وأحياها ونقلها من جوها المحـــدود الى الجو العربي في مشارق الارض ومغاربها إنما كان أديب المهجر الأكبر جبران خليل جبران ؛ يدعم ذلك ما رواه الاستاذ ميخائيل نعيمه في ثني كتابه النفيس « جبران خليل جبران »[1] .

على ان الذي يعنينا من هــذا المبحث إنما هو تأريخ « الرابطة القلمية » التي تحدث عنها الاستاذ الكبير ميخائيل نعيمه فأفاض في الحديث[2] .

وفي ثبت اعضاء الرابطة القلمية نجد هؤلاء : « ندرة حداد ، إيليا ابو ماضي ، وديع باحوط ، رشيد ايوب الياس ، عطا الله ، عبدالمسيح حداد ، نسيب عريضه » .

---

١ – ظهرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب القيم في بيروت سنة ١٩٣٤ وطبع في مطبعة « لسان الحال » ، ثم تكررت طبعاته على يدي « مكتبة صادر » .

٢ – تجد تفصيلاً للبحث أيضاً في كتاب « الناطقون بالضاد في أمريكا » ليعقوب العويدات البدوي الملثم وقد ترجمه عن نشرة بالانكليزية لمعهد الشؤون العربية الامريكية – نيويورك سنة ١٩٤٦ م وطبع بالمطبعة التجارية ، بالقدس .

ونجـــد في مكان العهادة « جبران خليل جبران » و « ميخائيل نعيمه » مستشار ، و « وليم كاتسفليس » – خازن –[1] .

اما نشأتها فانه « ... في خلال ليلة احياها صاحب « السائح »[2] واخوانه في بيتهم ، في العشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ م ، ودعوا اليهـا رهطاً من الأدباء والاصحاب ، دار الحديث عن الادب وعما يمكن الادباء السوريين في المهجر القيام بــه لبث روح جديدة نشيطة في جسم الادب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعــالة في حياة الامة ؛ ورأى احدهم ان تكون لأدباء المهجر رابطة تضم قواهم وتوحد مساعيهم في سبيل اللغة العربية وآدابها . فقابلت الفكرة استحسان كل الأدباء الحاضرين[3] ... وأقروا باجماع الاصوات مباشرة السعي لتحقيق هذه الفكرة ... » .

ونجد في سجل الجلسة الثانية ان الحاضرين[3] قد أقروا الأمور التالية :

١ – ان تدعى الجمعية « الرابطة القلمية » .

٢ – ان يكون لها ثلاثة موظفين وهم : الرئيس ويدعى العميد ، فكاتم السر ويدعى المستشار ، فأمين الصندوق ويدعى الخازن .

٣ – ان يكون أعضاؤها ثلاث طبقات : عاملين ويدعون عمالاً ، فمناصرين ويدعون أنصاراً فمراسلين .

٤ – ان تهتم الرابطة بنشر مؤلفات عمالها ومؤلفات سواهم من كتاب العربية المستحقين ، وبترجمة المؤلفات المهمة من الآداب الأجنبية .

---

١ – البحث مستقى من كتاب « جبران خليل جبران » للاستاذ ميخائيل نعيمة ص ١٦٩ وما بعدها ، طبعة بيروت ١٩٣٤ م .

٢ – « السائح » جريدة نصف اسبوعية لصاحبها ومؤسسها عبد المسيح حداد . وكان مضى على تأسيسها ست سنوات قبل قيام الرابطة القلمية لتكون لهم بوقاً فيما بعد .

٣ – نلاحظ عدم وجود اسم ايليا أبي ماضي بين الحاضرين في الجلستين .

٥ – ان تعطي الرابطة جوائز مالية في الشعر والنـــثر والترجة تشجيعاً للأدباء .

ووكل الحضور أمر تنظيم القانون الى العامل ميخائيل نُعيمة . ثم تمّ انتخاب جبران العمادة ونعيمة للستشارية وولم كالسفليس للخزن .

وبعد ان تم وضع هذه النواة للرابطة ضمن هذه الحدود التي هي بمثابة ملامح لبرنامج الرابطة وأهدافها كان عليهم ان يضعوا قانوناً .

وإني لأعجب لرابطة قلمية ، فكرية ، يكون لها « قانون » ، وقد كان حرياً ان تكتفي بذاك البرنامج لشموله وكفايته في مثل المجال الذي كانت عليه أهداف الرابطة .

ولم يذكر لنا الاستاذ نعيمة – المستشار – شيئاً عن هذا « القانون » ، وإنمـــا أورد لنا قسماً من مقدمته ، ليبين لنا روح الرابطة ومراميها ...

وجاء في تعريف الأدب : « ليس كل ما سطر بمداد على قرطاس أدباً ، ولا كل من حرّر مقالاً او نظم قصيدة موزونة بالأديب . فالأدب الذي نعتبره هو الأدب الذي يستمدُّ غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها ... والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خصّ برقـــة الحسّ ، ودقة الفكر ، وبُعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير ... »

فها هنا تعريف للأديب ، يُطل علينا من خلال وجهة نظر مستشار الرابطة القلمية ؛ وواضح ان شاعرنا الكبير أبا ماضي كان يصدر عن هذا التعريف عندما قدم ديوانه « الجداول » بهذه التقدمة :

لست مني إن حسبـتَ الشعر ألفاظاً ووزنا

خالفت دربك دربي وانقضى مـــا كان منا

فانطلق عني لئـــلا تقتني همّـــاً وحزنا

واتخذ غيري رفيقـــاً وسوى دنياي مغنى[1]

ثم يتحدث الاستاذ نعيمه في مقدمة « قانون » الرابطة القلمية عن « الأدب » الذي يريده ...

« ... إن هذه الروح الجديدة التي ترمي الى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعـــاني لحريّة في نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة فهي أمل اليوم وركن الغد . كما ان الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى هي في عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا ، وإن لم تقاوم ستؤدي بها الى حيث لا نهوض ولا تجدد .

« بيد أننا إذا ما عملنا على تنشيط الروح الأدبية الجديدة ، لا نقصد بذلك قطع كل علاقة مع الأقدمين . فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكرين مَن ستبقى آثارهم مصدر إلهام للكثيرين غداً وبعد غد الا أننا لسنا نرى في تقليدهم سوى موت لآدابنا ؛ لذلـــك فالمحافظة على كياننا الأدبي تضطر للانصراف عنهم إلى حاجات يومنا ومطاليب غدنا ؛ وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا[2] ... » .

ولسنا ندري في واقع الأمر ما الذي يعنيه الاستاذ ميخائيل نعيمه من قوله في تعريف الأدب « ... ان هذه الروح الجديدة التي ترمي الى الخروج بآدابنا من

١ – وقد علق الدكتور طه حسين على هذه الابيات في مقال له . ج ٣ « حديث الاربعاء » ص ١٩٦ . قال : « لكن الحق ان الشاعر لا يقول شيئاً في هذا الكلام لان الشعر لا يستقيم ولا يوجد ولا يمكن تصوره بغير الألفاظ والوزن . وآية ذلك أن الشاعر نفسه قدم لنا في ديوانه هذا ألفاظاً موزونة . ولم يقدم لنا كلاماً منثوراً في غير وزن ولم يقدم لنا معاني في غير ألفاظ . . . إذاً فالفظ ليس من الضعة وضآلة الشأن بحيث يريد الشاعر ان يقول في هذه الابيات التي رويناها لك ... وعلى هذا النحو تخالف الشاعر فيما ذهب اليه من ازدراء اللفظ والوزن ... » اهـ .

٢ – ص ١٧١ وما بعدها .

دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني لـ... فهي أمل اليوم وركن الغد» ؛ فان في هذا الكلام كثيراً من الغموض والابهام ؛ فهل المقصود من قوله «دور الجمود والتقليد» التقليد والجمود في المبنى أم في المعنى ؟ فان كان المقصود هو الجمود والتقليد في حدود المعنى فانّ المعاني – كما يقول أبو هلال العسكري – مطروحة في الطريق ... ولم يقف أمر التقليد في يوم من الأيام على المعاني ، ولم يدّع أحدٌ ان الجمود قد نال المعاني، حتى أصبح بحاجة للتحرر من مثل هذا الجمود ... وإن كان المقصود هو الجمود والتقليد في حدود المبنى فلسنا على وضوح في هذا الذي ذهب اليه الاستاذ ، إلاّ إذا كان يريد الخروج والتحرر من «الأسلوب» الذي كان رائناً على عصر القرن الرابع ثم عصر الدول المتتابعة او عصور الانحطاط من حيث اهتمامه بالسجع والطباق والجناس وهذه المحسنات البديعية التي أصبحت غاية في ذاتها طوال ذاك العصر .

وفي هذه الحالة لا نجد مـا يبرر مثل هذه الدعوة للتحرر من الجمود والتقليد والدعوة الى الابتكار والتجديد ؛ لأنه ليس هناك جمود في المعاني ولا في المباني وإنما هناك على وجه التحديد أدباء مجترون، يرددون ما سبق ان تظاهر من منثور عصر الانحطاط ومنظومه ، ومن هنا نرى ان مدرسة «الرابطة القلمية» انمـا هدفت الى الانفلات من «أساليب» عصور الانحطاط التقليدية التي لم تعد صالحة للتعبير عن حاجات الحياة اليومية في الاجتماع والأدب ، ولم تنفلت من قيود اللغة العربية ولا من معانيها وإن كانت أضافت الى كتاباتها هذه الأفكار الجديدة التي تلقتها من بيئتها الجديدة في المهجر .

على انه من مقتضيات البحث ان نشير الى كلمة الدكتور طه حسين في مجال التعليق على كتابات المهجريين «... ولكني حـائر حقاً في أمر هذا النحو من الشعر وهذا الفريق من الشعراء . قـوم منحوا طبيعة خصبة وملكات قوية ، وخيالاً بعيد الآماد ، وهم مهيئون ليكونوا شعراء مجوّدين ، ولكنهم لم يستكملوا أدوات الشعر، فجهلوا اللغة او تجاهلوها، ثم اتخذوا هذا الجهل مذهباً، فأصبحنا

من أمرهم في شك مريب ، لا نستبيح لأنفسنا ان نغري الناس بقراءتهم لأنا إن فعلنا أغريناهم بالخطأ ، ورغبناهم فيه ودفعناهم الى ما هم مدفوعون اليه بطبعهم من الكسل والقصور والتقصير . على ان هذا النحو من الضعف لم يكن شائعاً مألوفاً في مصر بل لم يكن شائعاً مألوفاً في بلاد الشرق العربي، ولكنه أقبل علينا من مهاجر السوريين في أمريكا ، فتأثر به الشباب بعض الشيء ... ومـا الذي يمنعهم ان يتأثروا به وهو مريح لا يكلف تعباً ولا عناء ، وهو في الوقت نفسه يخيل الى الشبان انهم يقلدون الشعراء الغربيين ويجددون في الأوزان والقوافي ويخرجون على التقاليد فيعنون بالمعاني دون الألفاظ ؟ ... »[1]

وكأنني بالاستاذ ميخائيل نعيمه يردّ على الدكتور حسين عندما قال : « ... ونقم أنصار التقليد والجمود على الرابطة ، فمـا كانت نقمتهم إلا لتزيدها قوةً وحماسةً واندفاعاً ولتنمي عدد انصارها ومريديها ومقلديها والمعجبين بها في كل قطر عربي ، حتى حار في أمرها أصحابها وأعداؤها على السواء ؛ فمـا عادوا يعرفون الى ماذا يعزون سرّ قوتها وبُعد تأثيرها . فمن قائل إن السر في الأدب الامريكي الذي تأثر به عمال الرابطة ، وهو قول فارغ ، ومن قائل : إنه في جو الحرية الامريكية ؛ وهو قول أفرغ ، ومن قائل إنه في تهتك عمال الرابطة من حيث اللغة العربية واصولها ، وهو قول أفرغ وأعقم من القولين الأولين . اما الحقيقة فلا يعلمها إلا الذي جمع عمـال الرابطة القلمية في فسحة محدودة من ديار غربتهم ولمحة معلومة من زمان هجرتهم ووضع في صدر كل منهم جذوة تختلف عن أختها حرارةً وبهاءً لكنها من موقد واحد »[2] .

وكأننا نجد الاستاذ نجم يدلي بدلوه في الموضوع ويبدي رأيه في أدب المهجر فيقول: « ... والذي يهمنا من هذه الحركة هو وجهها الأدبي، وهو وجه مشرق

١ – ج ٣ «حديث الاربعاء» ص ٢٠٠ وما بعدها .

٢ – «جبران خليل جبران» لنعيمه ص ١٧٤ .

ناصع . فقد كتب للكثيرين من هؤلاء المهاجرين ان يبرزوا في عالم الأدب والفكر كما برزوا في نواحي الحياة العملية . ومن منا ينكر المساهمة القيمة التي شارك بها المهجريون في نهضتنا الأدبية الحديثة . ومن يجهل «الرابطة القلمية» التي كان رئيسها جبران خليل جبران ومن أعضائها ميخائيل نعيمه وإيليا أبو ماضي ونسيب عريضة و ... وهذا لا يعني ان النشاط الأدبي في المهاجر الامريكية انحصر في هاتين الجمعيتين (يعني بالثانية العصبة الاندلسية في أمريكا الجنوبية) بل هنالك أدباء كثر لم ينتظموا في سلكها ...»[1] .

ويستمر الاستاذ نجم فيقول «... نود ان نجمل رأينا فيها — في الرابطة — بأن نقول : إن هذه المدرسة التي اتسمت بميسم القوة والتجديد والثورة على كل قديم بل هي أقوى مدرسة عرفها الأدب العربي الحديث حتى اليوم . وقد ضربت بسهم صائب في حقل الأدب واستطاعت ان تقدم الى أدبنا طائفة مختارة من الأدباء الذين شاركوا في الادب بألوانه المختلفة مشاركة طيبة ، والذين نفحوا بروحانية طغى عليها التفكير الفلسفي الصوفي . وقد عني هؤلاء الادباء بالفكرة والموسيقى أكثر مما عنوا باللغة وقواعدها»[1] .

ويذكر الاستاذ الياس ابو شبكه[2] شيئاً عن موقف أدباء العربية من أدباء المهجر وأدبهم ، فيرى انه «كموقف البرناسيين الفرنسيين من بعض ادباء العهد الرومنطيقي على وجه التقريب . ففي العام ١٨٦٦ عندما اذاعت المدرسة البارناسية مبادئها راحت تنحي باللائمة على الشعراء الذين يهملون العناية باللغة وقواعد النظم ، فيسلكون مثلاً مسلك ألفرد ده موسيه الذي كان له من عبقريته ما يشفع بقوافيه المضطربة ... سوى ان الشعراء البرناسيين كجوزي ماريا ده هريديا، وبودلير ، وليكونت ده ليل ، وفرانسوى كوبيه ، واضرابهم كانوا يرتفعون

١ — «القصة في الادب العربي الحديث» ص ٨٦ .

٢ — «روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة» ص ١٠٢ .

بقوة افكارهم وجمال صورهم الى مستوى الصياغة والمتانة اللتين كانوا يطالبون بالتمسك بهما ، فلم يهبط المستوى الفني عن مرتبة الشاعر ، خلافاً لأدبائنا الذين كانوا يأخذون على جبران والريحاني وعريضه وإخوانهم من رجال الرابطة الأدبية في المهجر ضعف لغتهم ونبذهم القواعد المأثورة في النظم والنثر» ...

ومهما اختلفت الاقوال في هذه المدرسة المهجرية بين مدافع عنها وبين محبذ لها ومنشط ومهاجم فان الذي لا ريب فيه انها احتلت مكانة لها قيمتها في الميدان الادبي خلال الربع الثاني من القرن العشرين وكان لها انصارها ومحبوها «ولا يزال لهذه المدرسة أثرها في الأدب العربي المعاصر . وقد بدأ الضعف يدب في عناصرها ، (خاصة بعد وفاة عميدها جبران) إذ ان الامداد الأصيل الذي كان يأتيها من ارض الوطن يكاد ينقطع سيله الآن . وكل أديب يموت هناك يدق مسماراً جديداً في نعشها»[1] .

امـا مدى انطباع المدرسة في شعر الشاعر ابي ماضي ، ومدى ما أسداه الشاعر لهذه الرابطة ، فاننا ندور كثيراً في شعر الشاعر فلا نجد إلا الروح الجنحة التي حملته على التخلي عن مدرسة تقليد القدماء في ألفاظهم وتعبيراتهم بل واساليبهم لينطلق في رحاب المدرسة الجديدة التي تهتم بالفكرة اكثر مما تهتم بالثوب الذي تضفيه على تلك الفكرة ؛ فاذا نظرت في دواوينه التاليين «الجداول» و «الخمائل» فلن تجد المطالع الفخمة التي تذكرك بالمعلقات او بلامية العرب او العجم وما اتصل بذلك ، وانما تجد لوناً جديداً ليس فيه إلا محاولة التعبير عن أفكار جديدة هي وليدة البيئة الجديدة التي عاشها مع زملائه أعضاء الرابطة القلمية .

. . .

ولست بمعرض الحديث عن «أثر الرابطة القلمية» في شعره لأن «الرابطة القلمية» إنما قامت بمعاونة الشاعر إيليا ابي ماضي ، فهو علم من أعلامها وعامل

١ — «القصة في الادب العربي الحديث» ص ٨٨ .

من عمالها، إلا انه لا بدّ من التنويه بالانطلاق الذي أصبح عليه منذ سلك في عداد عمال الرابطة القلمية وكان عليه بالتالي ان يُثبت وجوده كشاعر يدافع عن تلك «المبادىء» ، التي ألمّ اليها الاستاذ الكبير ميخائيل نعيمه في مقدمة «قانون الرابطة القلمية» ، وان يعتنقها ويؤمن بها نصاً وروحاً .

على أن المتتبع شعر ابي ماضي ، بُعيد اشتراكه في إنشاء الرابطة القلمية حتى آخر منظومة له ، يجد الشاعر الكبير من مدرسة غير مدرستهم وفي اتجاه غير اتجاههم . ولسنا ندعي انه تخالف كما لا نقوى على الادعاء أنه منصهر في بوتقتها ، بل كان ذاك الشاعر الفرد يغني ما تمليه عليه موهبته دون ان يتعمّد هذا اللون او ذاك ، ودون ان يحاول ان يكون صاحب مدرسة خاصة في الشعر لها طريقتها ولها اسلوبها المتميز .

. . .

آراء :

على أن مما لا شبهة فيه أن إيليا أبا ماضي شاعر كبير «يصعد الى الملأ الأعلى ولكن على سلّم أبقى وأقوى من الجبال ؛ يصعد بعزم الروح ، ويتمسك بحبال غير منظورة ولكنها أمتن من سلاسل الحديد ؛ يتمسك بحبال الفكر ، ويملأ كأسه من عصير أرق من ندى الفجر ، يملأها من خمرة الخيال ؛ والخيال هو الحادي الذي يسير أمام مواكب الحياة نحو الحق والروح»(١) .

ويضيف جبران خليل جبران قائلاً «... وإيليا ابو ماضي شاعر ، وفي ديوانه سلالم بين المنظور وغير المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ،

١ — من مقدمة «الجزء الثاني من ديوان إيليا أبي ماضي» كتبها جبران خليل جبران، طبعة نيويورك ، ص ٤ .

وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي إن ترشفها تظلّ ظمآناً حتى تملّ الآلهة البشر فتغمره ثانية بالطوفان»(١) .

. . .

رأيه في الشاعر :

ولعلّ هذا الذي أسبغه جبران خليل جبران على ايليا ابي ماضي انما هو مستقى من تعريف ابي ماضي للشاعر ؛ إذ تطالعك في صدر الجزء الثاني من ديوانه قصيدة بعنوان «الشاعر» ، وقد حاول أبو ماضي ان يجري حواراً بينه وبين فتاته حول تعريف الشاعر فجاء بالبديع من القول .

فالشاعر ، من حيث هو شاعر ، كالكهرباء في خفائها وظهورها ، وهو ذاك الذي حباه الاله القدرة على ملاحقة خفايا الأشياء ، فكأنه لا يرتضي بظواهرها بل يروح متسائلاً عما وراء المنظور :

... ... أنــا كالكهرباء ، أرى خفياً ظاهراً

... هو من يسائل نفسه   عن نفسه في صبحه ومسائه

والعين سرّ سهادها ورقادها   والقلبُ سرّ قنوطه ورجائه

وهو بالتالي ذاك الانسان الذي حار في كل شيء ، ولم يقنع بشيء ، ولم تصل معرفته الى مرتبة اليقين في أية قضية من قضايا الحياة ، لذا تراه أبداً معلق الانفاس ، مبهورها ، يسائل نفسه ولا من مجيب ، فتغلبه شكوكه على نفسه فيقول في وصف الشاعر :

فبحار بين مجيئه وذهابه   وبحار بين امامه وورائه

١ — المصدر السابق ، ص ٥ .

ولكن هذا الانسان الحائر بين امسه ويومه وغده ، وبين منشئه ومصيره له قدرة على رؤية الاشياء المبهمة فكأنه على شيء من العلم بالغيب :

ويرى أفول النجم قبل أفوله   ويرى فناء الشيء قبل فنائه

وهو الى جانب هذا سادر في مهامه الحياة ، غامض في تصرفاته تأخـــذه موجات من التشاوم كاسحة ... فهو :

إن نام لم ترقد هواجس روحه   وإذا استفاق رأيته كالتائه
ما ان يبالي ضحكنا وبكاءنا   ويخيفنا في ضحكه وبكائـه
ويسير في الروض الاغن فلا ترى   عيناه غير الشوك في أرجائه

حتى إذا أخذت منه الانانية مأخذها الرهيب أصبح :

كالنار يلتهم العواطف عقله   فيميتها ويموت في صحرائه

ويتبادر الى الذهن ان هذه الانانية أصيلة ، في جبلته ، تجري في دمائه ، ولكنك إذا أمعنت النظر تلاعت لك غيريته بأجلى مظاهرها ...

هو من يعيش لغيره ويظنه   من ليس يفهمه يعيش لذاته

وجملة القول في صفات الشاعر ان فيه من الناس أحاسيسهم ومشاعرهم ولكنه الى جانب ذلك يسمو عليهم بهذه القدرة الجبارة على اختراق المنظور والكشف على اللامنظور ...

كلما هزّت يداه وتراً   هزّ من كل فؤادٍ وتره

وهو تعيس في الأمة التعيسة :

تعس الحظ ، وهل أتعس من   شاعرٍ في أمةٍ محتضره ؟..

وهو رسول القومية ورسول المحبة ورسول السلام ورسول الحرب ، وكما هو

قادر على هزّ المشاعر ، وقادر على التطلع الى المجهول ليكشفه ويجعله معلوماً ، فهو قادر على الانفعال والغضب ، تأخذه الحمية إذا به :

ثم لمـــا عبث الناس به   مزّق الطرس وشجّ المحبره (١)

فهنا تتلامح لك صورة أقرب ما تكون الى الكمال لذلك الانسان الذي أراد ان يحدد أبو ماضي صفاته ويبين مميزاته ؛ فهو قبل كل شيء « إنسان » يحس كما يحس الآخرون فينفعل كما ينفعلون ويميل مع نفسه كما يميلون ، الا انه في مجالي الفكر ومطارح الرؤية تراه يفكر أبعد مما يفكرون ويرى بأقوى مما يرون فيجمل القول والصفات ليعرّف الشاعر فيقول (٢) :

انما نحن معشر الشعراء   يتجلّى سرُّ النبوّة فينا

. . .

على ان أبا ماضي وقد تحدث في « الشاعر » لم يترك الحديث في « الشعر » . ولا يعني هذا انه قد حاول تحديد « مفهوم » الشعر ، او حاول ان يرسم خطوطه بريشة صاحب مدرسة خاصة ، ولكنه التفت الى من تقدمه من الشعراء فأنكر من شعرهم بعض الاغراض ، فهو يأنف من التشبيب بالحرة ، كما يترفّع عن المديح ووصف النساء ، ويعتبر ذلـــك من « سفاسف الشعراء » ؛ وإذا كان الشعراء القدامى برأيه ، قد أخذوا انفسهم بالمديح ، يجعلونه غرض الاغراض في شعرهم ، فشاعرنا يعتبر ذلك منقصة يترفع عنها ولا يتدنى اليها :

أنا ما وقفت لكي أشبب بالطلا   مـــالي والتشبيب بالصهباءِ
لا تسألوني المدح او وصف الدمى   إني نبذت سفاسف الشعراءِ

١ – الأبيات مأخوذة من قصيدته « الشاعر والأمة » .
٢ – الجداول ، مطبعة الزهراء ، النجف الاشرف (العراق) ص ٣٢ .

باعوا لأجل المال ماء حياتهم   مدحاً وبتُ أصون ماء حياتي

لم يفهموا بالشعر إلا انـه   قـد بات واسطة الى الاثراءِ

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان هيناً ، ذلك ان أبا ماضي قد نظر الى الشعراء القدامى بباصرة القرن العشرين ، ولم ينظر اليهم بباصرة القرون التي عاشوا فيها والتي كانت تقهر الشاعر على الا يقول الشعر إلا للتكسب لمحدودية وسائل العيش من جـانب ولانعدام الصحافة التي هي بوق الخلفاء والسلاطين والمتسلطين من جانب آخر ؛ الا اننا نرى الشاعر مولعاً بالتعميم عندما يجعل صفة الرياء ملاصقة لاخلاق « أولئك » الشعراء :

« ألفوا الرياء فصار من عاداتهم » ...

ومن هنا يتضح لنا رأي الشاعر أبي ماضي فيمن تقدمه من الشعراء أولاً وفي أغراض شعرهم ثانياً ؛ أما مذهبه هو في الشعر ، فلم يكد يشير إليه إلا في مقدمة ديوانه الثالث « الجداول » عندما قال في تلك الفاتحة :

لستَ مني إن حسبتَ   الشعر ألفاظاً ووزنا

خالفت دربـك دربي   وانقضى ما كان منا

ومن الواضح الجليّ الذي لا يرقى اليه الشك أنّ الشاعر يريد ان يقول إن الشعر ليس ألفاظاً واوزاناً وانما هو روح ومعنى ، فكأنه بهذا قد انتصر لمدرسة المبنى . وهو الى جانب ذلك لم يذكر شيئاً عن العاطفة في الشعر [1] والصدق . ولعل أمير الشعراء كان اجمع لتعريف الشعر حين قال :

والشعر ، ما لم يكن ذكرى وعاطفة   او حكمة ، فهو تقطيـع وأوزان

١ – ارجع الى كتاب « من النقد الفرنسي » للاستاذ محمد روحي فيصل ، نشرته دار اليقظة العربية في سلسلة منشوراتها « اليقظة » عدد (٢) ففيـه من المباحث في الشعر ، والحاجة اليه ، والحياة والشعر ، ما هو جدير بالدراسة والاقتباس .

فشوقي ، بهذا التعريف ، قد ميز الشعر من النظم ، وأبان عن اهدافه فجعلها في ثلاثة اهداف : الذكرى ، والعاطفة ، والحكمة ؛ فلو خلا الشعر من احد هذه الاغراض عاد نظماً يُسلك في عداد الموزون ، بينما نجد أبا ماضي قد اهمل التحدث عن هذه الاغراض واضاف إلى ذلك إهمال اللفظ ، مما ساق الدكتور طه حسين سوقاً الى ان يأخذ عليه ذلك بشدة وعنف كما سبق القول .

وما دام الموضوع دائراً في تحديد مفهوم الشعر فلا علينا إذا أثبتنا رأي الشاعر الفرنسي الكبير « بول فاليري » [1] لأنه يُبين عن عمق في فهم الشعر ؛ قـال : « للشعر في الافهام معنيان : أولهما انه مجموعة العواطف والانفعالات التي تهيجها في نفوسنا احداث الزمن ، ومجالي الطبيعة ، ومعاني الوجود ، وألوان الحياة . فنقول ، منظر شعري ، وظرف شعري . وثانيهما انه فنٌ قائم وصناعة عجيبة ، يتناول الاهواء المشبوبة بالتنسيق والتأليف والجلاء ، ثم يبرزهـا في لغة جميلة تطرب لها الأذن ويهتز منها القلب » .

ونرى من جانب آخر ان ايليا أبا ماضي قد جعل شعاراً لجريدته التي أصدرها في نيويورك ولا يزال ، هذين البيتين :

أنا لا أهدي اليـكم ورقاً   غيركم يرضى بحبر وورقْ

إنما أهدي الى أرواحكم   فكراً تبقى اذا الطرس احترقْ

فـ « الفكرة » هي التي تتغلب لدى الشاعر على اللفظ ، كأنه من انصار المعنى وحده ، فالشعر عنده ، او ما يصدر عنه بالذات ، انما هو فكر خالد ، باقٍ بقاء الزمن ؛ ويبقى بعد هذا ان نتساءل مع الشاعر الكبير عما اذا كان الخلود يصد عن الاثواب الجميلة وهو يراها تكسو تلك الاجساد الخالدة !! .

١ – كتاب « من النقد الفرنسي » للاستاذ محمد روحي فيصل ، في سلسلة « اليقظة » التي كانت تصدرها دار اليقظة العربية ، العدد ٢ ص ٩ ، طبعة ١٩٤٣ م .

ثم نجد الشاعر الكبير وقد قدم قصيدة الى روح الشاعر الخالد خليل مطران[١] فعرّف فيها بالشاعر ...

فالله – عزّ وجل – عندما أبدع هذا الكون ورأى هذا الجمال المبثوث في كل شيء من اشيائه ، وطرب لخلقه وإبداعه خلق الشاعر ...

خلق الشاعر ليكون في كل وجه عيناً ، تبصر الحق ، وتهواه متحركاً او ساكناً، انساناً او شيئاً او شأناً ... وبذلك وحده، ضمن الله عدم فناء الحق وعدم انقراض الحب ... ثم اذا تلفت تسائل نفسك عن قيمة هذا «الشاعر» تجد أبا ماضي يرى ان الشاعر وحده هو الذي عانق الله يقينا ... وهب ربك أراد لهذا الشاعر ألا يكون على الأرض ، فماذا انت متوقع حدوثه ؟.. ستري الأرض وما عليها شاحبة محزونة، وهاداً وحزوناً؛ وسترى السواقي وقد غاض ماؤها وعادت سراباً يهزأ بالظامئين ... ثم ... سترى الله – جـــل عن مثل هذا – مغموماً حزيناً لانه لم يخلق العين التي ترى والنفس التي تحس والفكر الذي يعي !

والى جانب هذه الصورة القوية للشاعر ، كما أرادهـــا أبو ماضي ، فقد جعل للشاعر رسالات ، عليه ان يؤديها في حياته ، رسالات في التفاؤل ، وفي تجميل الحياة وتزيينها ، ورسالات في القومية ورسالات في المجتمع وما اتصل بذلك ؛ وحسبك ان تقلب صفحات دواوينه[٢] ، فستجد ما اضطرب في نفس الشاعر منقوشاً بأحرف من نور تشير الى سمو الرسالة التي يحملها الشاعر مبشراً بها من جانب والى مدى ما يحرق شمعة حياته لينير الدياجير للسارين في ليل الحيـــاة الأبدي .

...

١ – نشرت القصيدة في مجلة «العصبة» التي تصدر عن البرازيل .

٢ – القصائد التي تعالج هذه الموضوعات اكثر من ان يحصيها عد . وقد انتقينا بعضها من الجزء الثاني من ديوانـــه واثبتناها في هذه الدراسة «الشاعر والامة ص ٢٨ . دموع وتنهدات ص ١٩٥ . أمة تفنى وانتم تلعبون ص ٢١٠» الشاعر والسلطان الجائر «الحائل» ص ٧ وغيرها.

رأيه في المرأة :

ما كنت لأحب ان أفرد مبحثاً خاصاً أشير فيه الى رأيه في المرأة او السياسة وما اتصل بذلك ، لانه يسوقنا بالضرورة الى تقصي جملة آرائه في مختلف مظاهر الحياة والمجتمع ، وهو ما لا نقصد اليه ، ولكننا وجدنا له في بعض شعره ما هو جدير بالتنويه به في هذين الأمرين الخطيرين .

وعلينا باديء ذي بدء ان نميز نوعين من النساء يذكرهما الشاعر في منظومه ، أولهما الغانية التي خلقهـــا الله خدينة الشاعر في رحلاته العلوية لتكون موضوع غزله ومناجاته وموضوعات قصصه ؛ ومثل هذه الغانية – في شعر الشاعر – تتسم بالجمال المطلق ، فريقتها خمرة ، وخدها وردة ، وعيناها منبع السحر الحلال:

ليت الذي خلق العيون السودا   خلق القلوب الخافقات حديدا

لولا نواعسها ولولا سحرها   ما ود مالك قلبه لو صيدا

عوذ فؤادك من نبال لحاظها   او مت كما شاء الغرام شهيدا

... ...

عيناك والسحر الذي فيهما   صيرتاني شـــاعراً ساحرا

وأمثال هذا اللون من الشعر منثور في اثناء المختارات التي انتقيناها لهذه الدراسة من الجزء الثاني من ديوانه واثبتناها إثر هذه الدراسة ؛ وكلها لا تخرج عما نعلم من وصف الغواني لدى الشعراء في كل عصر ومصر .

ولست اريد تجاوز هذه «الغانية» قبل ان اشير الى ان شعر الشاعر – في مختلف القصائد والمقطوعات – لا يعدو ما نسميه «النسيب» ، من حيث انه يقول دون ان نستشعر عاطفة الشاعر الخاصة تجاه مخلوقة بعينها او حبيبة وقف عليها حيـــاته وشعره ، كأن الشاعر الكبير لم يعرف الحب ولم يستوحه في منظومه !

واما الأنثى الثانية التي ورد ذكرها في شعر الشاعر فهي « المرأة » التي هي موضوع الخلاف السرمدي من حيث مكانتها في المجتمع والمهمات الملقاة على عاتقها في هذه الحياة ؛ فهو هنا يتحدث عن « المرأة » مقابل « الرجل » .

ورأيه في « المرأة » واضح كل الوضوح ، فهي لم تُخلق للعمل ، والكدح ، ولكسب المال ، كما لم تخلق لأن تُباع وتشرى في سوق نخاسة الزواج وانما لها محل واحد عليها ألا تتجاوزه او تطلب اكثر منه او تكلف بغيره وهو « المنزل » .

وإذا كان انصار تحرير المرأة لا يرضون عن مثل هذا الرأي من الشاعر فانه قد صرح به في لفظ جريء لا مواربة فيه ولا مداورة ، فاستمع اليه يقول[1] :

سجل العار علينا معشرٌ	سخّروا المرأة بين العمل
فهي إما سلعة حاملة	سلعاً او آلة ٌ في معمل
تتهاداها الموامي والربى	فهي كالدينار بين الانمل
في سبيل المال او عشاقه	تكدح المرأة كدح الابل

الى ان يقول :

جشموها كل أمر معضل	وهي لم تُخلق لغير المنزل

فهل يمكن لنا ان نطلق على الشاعر تعريف « رجعي » لاعتناقه مثل هذا الرأي الذي يعيد المرأة الى عرشها الخالد في بيت الزوجية ؟

وعلينا ألا ننسى ان شاعرنا يعيش في بلاد الحرية والنور والتحرر والتحرير[2] ،

١ – قصيدة « بنت سورية » .

٢ – ينطبق هذا على أمريكا أيام صدر ديوان الشاعر الجزء الثاني ، قبل سنة ١٩٢٠ م . أما اليوم فقد وأدت – فيما وأدت – تلك المبادىء الانسانية بكاملها عندما أقامت دولة الصهاينة في قلب البلاد العربية فكانت أدهى دولة استعمارية مزقت فلسطين الشهيدة شر ممزق وقدمتها لقمة سائغة لشذاذ الافاق ! ! !

فهو عندما يدلي بمثـل هذا الرأي إنما يُدلي به بعد ان لمس « ذلّ » المرأة في حقل العمل :

في سبيل المـال او عشاقه	تكدح المرأة كدح الابل

فكان لا بدّ له في التالي من ان يدعو الى ان المرأة لم تخلق إلا للمنزل ، ضناً بكرامتها ومنزلتها ان تتدنى الى مرتبة الكدح والعمل المضني الشاق الذي خُلق له الرجل وحده !

. . .

رأيه في السياسة :

رأيه في السياسة متصل اتصالاً وثيقاً بسبب هجرة الشاعر الكبير ... وعلينا ان نسجل ، اول ما نسجل ، ان الشاعر لا يعتنق مبدأ سياسياً معيناً يبشر به ويدعو اليه ، وإنمـا تمرّ في شعره بعض المناسبات فيستغلها ليدلي برأيه في « السياسة » من حيث هي نمط من انماط الاساليب العصرية للوصول الى الحكم .

وقد يدخل في هذا المبحث « قومية الشاعر » ، وغضبته المضرية على بعض الساسة من وجهة نظر المواطن الذي سئم حكاماً معينين لانهم ظلموه او ظلموا أمته ، كما في قصيدته « وداع وشكوى » .

وقد نجده يغضب غضبة شديدة على تركيا والاتراك في اكثر قصائد الجزء الثاني من ديوانه ، لان تركيا المشؤوم جثمت على صدر الأمة العربية اربعة قرون او تزيد فأذاقتها ألوان الاهانة والاذلال والاتعاس والافقار والاشقاء[1] ...

١ – مما دعا بعض الشباب الى الفرار من سورية ولبنان الى فرنسا لينضموا فيما بعد الى الجيش الفرنسي الزاحف الى الشرق لاحتلال البلدين ؛ ظناً منهم انهم يحررونهما من الطغيان التركي . ارجع الى كتاب « النبوغ اللبناني » قسم الحديث عن الاعلام .

وقد تجده الى جانب ذلك يغرق في مدح « امريكا » التي خلصت بلاده من نير الاتراك الجائرين ... إلا ان هذا جميعاً ليس إلا من قبيل « الانفعال » ، وما هو إلا رأي شاعر في وضع سياسي او حالة قائمة ، لا يعالج جوهرها وإنما يلامسها ملامسة قريبة تتصل بالمناسبة التي قيلت فيها القصيدة ، فهو من هذا الجانب « شاعر مناسبات » ، فلا مجال للاشارة الى ما يمكن ان يكون في شعره من تناقض بالنسبة لموضوع واحد ، ذلك ان الشاعر لا يعالج « جوهر » السياسة والاحداث السياسية وانما يتحدث في بعض المناسبات عن هذا الذي يعتلج في نفسه إبان سخطه ، وإبان رضاه !

ولست تجد في جميع منتخبات هذا الكتاب إلا هذا اللون من الشعر السياسي الذي يذم الاتراك لنذالتهم وسفكهم دماء العرب وخنقهم الحرية ووأدهم الشباب العربي المثقف حياً ... مما جعل الشاعر يصب جام غضبه على « الاسلام » الذي كانت تمثله الخلافة العثمانية ... فاذا مرّ ذكر « الهلال » ، وجدت الشاعر يحاول جاهداً ان ينتقص من قدره ويحط من قيمته ، لانه رمز لتلك الخلافة وما كان في العثمانيين من فساد أصيل ...

وإذا انتصر الغرب على الاتراك في موقعة من المواقع او معركة من المعارك وجدت الشاعر أبا ماضي يهتبل المناسبة ليجعل الصلبان تعلو على الأهلة ، تشفياً وشماتة بالاتراك !!

فاستمع اليه في قصيدة « بلادي » يخاطب الاتراك مشيراً الى القرون الطويلة التي جثموا فيها على صدر سورية :

رجال الترك ، ما نبغي انتقاضاً ... لعمركمُ ، ولا نبغي انتقاما
ولكنا نطالبكم بحقّ ... وننكره من يريد لنا اهتضاما
حملنا نير ظلمكمُ قروناً ... فأبلاها وأبلانا وداما

وإذ ذكر ما خلّفه الاتراك من مساوىء ، قال يخاطبهم :

رعيتم ارضنا فتركتموها ... إذا وقع الجراد رعى الرغاما
فبات الذئب يشكوكم عواءً ... وبات الظبي يشكوكم بغاما

ولا يقتصر الشاعر على هذا اللون من التأنيب العنيف وصم التركي بهذه الصفات الجارحة حقاً وانما يعمد الى التعميم ، فيرى ان التركي جبان رعديد ، وعلاوةً على هذا الفساد والدمار الذي ينشره في كل ارض يحلُّ بها ، تراه يمشي الى حتفه بظلفه ، ويقود « الهلال » الى المحاق فالفناء ... ويبدو ان الشاعر يريد بعض الخير لهذا الهلال او يتوسم له مستقبلاً أفيح وآتياً أنجح ...

جررتم بـ « الهلال » الى محاق ... ولولا جهلكم بلغتم التماما

والتركي الى جانب جهله لئيم ، فكلما ازددنا ليناً زاد عراماً ، وليس من طباعه حفظ الجار ولا في خلقه مراعاة الذمام ... اضف الى ذلك انه مولع باثارة الفتن والاحقاد حتى يفتك الناس بعضهم ببعض ...

ولو وقف الامر بثورة الشاعر عند هذا الحد لقلنا تلك غضبة الكريم لقومه الذين أذلهم الاتراك أيما إذلال ، ولكنه شك في إيمان الاتراك ومسهم في عقيدتهم مساً غير رفيق :

خفِ التركي يحلف بالمثاني ... وخفه كلما صلى وصاما

ثم أثارها الشاعر نزعة طائفية دينية عندما قال :

وقالوا نحن للاسلام سورٌ ... وان بنا الخلافة والإماما
فهل في دين أحمد ان يجوروا ... وهل في دين أحمد ان نضاما ؟

ثم يضيف الى ذلك توزيع مقاعد الحكم ...

الى كم يحصرون الحكم فيهم — وكم ذا يبتغون بنا احتكاما
ألسنا نحن اكثرهم رجالاً — إذا عُدُّوا وارفعهم مقاما

وبعدها يعلن الثورة ليقول :

سنوقدها تعير الشمس ناراً — ويُعيي أمرها الجيش اللهاما
وعلم المرء أنّ الموت آتٍ — يهوّن عنده الموت الزؤاما!..

ولا تكاد تمرّ مناسبة من المناسبات حتى يحمل حملته الشعواء على الاتراك الذين هدروا القيم وعطلوا المفاهيم ووأدوا الاحرار وأداً مشيناً :

ما كفتنا مظالم الترك حتى — زحفوا كالجراد او كالوباء
ضيم احرارنا وريع حمانا — وسكتنا والصمت للجبناء

ونراه في قصيدة « معركة بورغاس » يشنها حرباً صليبية أخرى ، إذ يرى ان المعركة لم تكن بين قوم وقوم ، وإنما كانت بين الاسلام والنصارى ... وانحسرت المعركة عن :

وقد انجلت فاذا الهلال منكس — علم طوته راية الصلبان

ويجد الفرصة موآتية مرة اخرى فيصب جام غضبه على الاتراك ، او على المسلمين ، كأنه لا يفهم الاسلام إلا من خلال الاتراك ، او كأنه نسي ان غضبة المسلمين على الاتراك تفوق غضبة النصارى عليهم ، او كأنه نسي ان الاسلام شيء والمسلمين شيء آخر ... ويجدر بنا في هذا المرض ان نستطرد ، بعض الاستطراد ، لنذكر كلمة في مثل هذا المجال وجهها الدكتور طه حسين الى الاديب الفرنسي الكبير أندريه جيد ، فأمل قوله : « ... لم تخطىء انت (والخطاب لاندريه جيد) وإنما دُفعت الى الخطأ . لقد خالطت كثيراً

من المسلمين ، ولكنك لم تخالط الاسلام : فليس على الاسلام بأس مما ألقى في روعك خلطاؤك المسلمون »[1] .

وتمثيل ذلك ما وقع لشاعرنا الكبير ابي ماضي ، فانه ما كاد يرى مساوىء الاتراك حتى ظن السوء في الاسلام لا في الاتراك ...

اما جبن الاتراك فان الشاعر يقدم لك صورة رائعة لهؤلاء الجبناء (على حدّ رأيه) :

نفروا، لكالحمر التي روّعتها — بابن الشرى المتجهم الغضبانِ
وقلوبهم قد امرعت ضرباتها — وتظنها وقفت عن الخفقانِ
متلفتين الى الوراء بأعين — تتخيل الاعداء في الاجفانِ
يتلمسون من المنية مهرباً — هيهات!.. ان الموت كلّ مكانِ
إن يأمنوا وقع الأسنة والظبى — فالذعر طاعنهم بشرّ سنانِ!.

. . . .

يقابل هذا ، رأيه في « اميركا » ، فهو نقيض في رأيه في أولئك الاتراك اصحاب الهلال ، أليس الامريكيون اصحاب « الصلبان » ؟ إذن لا عليه اذا أزجى المديح واطنب فيه ايما اطناب في اكثر من قصيدة من المنتخبات ، ويبلغ اعجابه بأميركا حداً يلغي قوميته وعصبيته ووطنه ، ويرى الراية الاميركية هي الراية الوحيدة الجديرة بالخلود[2] :

١ – من مقدمة « الباب الضيق » لأندريه جيد ، نقله الى العربية الاستاذ نزيه الحكيم، وقدم له أندريه جيد وطه حسين، طبعة دار الكاتب المصري ، ١٩٤٦ .

٢ – من موشح « ١٩١٤ » .

... ...

فلتدم «اميركا» مـا انطوى ما لهذا الفتح في التاريخ ثان
ولتعش رايتها ذات النجوم اجمل الرايات أولى بالخلود

. . .

ومن جملة ما تقدم يتضح لنا ان الشاعر الكبير لا يعالج مبدأ سياسياً معيناً ولا يميل مع مذهب من المذاهب الاجتماعية السائدة، وإنما عالج موضوعاً من موضوعات «المناسبة» وحدها ...

اما رأيه في السياسة، من حيث هي «جوهر» ومن حيث هي «مبدأ» فاننا نجده يحمل عليها بشدة وعنف لانها كثيرة الوجوه، كالحرباء متلونة .

ولا يفوتني ان اشير الى ان الشاعر قد انصرف عن غرض «شعر المناسبات» – إلا قليلاً – في الجداول والخمائل[١]، بمعنى انه اصدر «تذكار الماضي» ثم «الجزء الثاني من ديوان إيليا أبي ماضي» ثم انصرف عن هذا اللون انصرافاً كلياً، كأنما أصبح يرى نفسه ارفع من ان يحقد على أمة او يماري أمة ! وإذا كنا نجـد له قصيدة «فلسطين»[٢] فهي من قبيل ملحمة قومية لا تتصل بالمسلمين والنصارى واليهود وانما تتصل بالعروبة وبالصهيونية !!.

ونجد أنفسنا مباشرة أمام رأيه في «السياسة»، والحديث فيها وموقفه منها...

. . . .

واهجر احاديث السياسة والألى يتعلقون بحبل كلّ سياسي[٣]

١ – تجد في «الجداول» بعضاً لا يكاد يذكر، ولكنك، مقابل ذلك، تجد كثيراً من شعر المناسبات، في آخر دواوينه «الخمائل».

٢ – من شعر الخمائل.

٣ – «الجداول» ص ١١٥.

وشاعرنا الكبير نبذ ثمارها بعد ان ذاقهـا ؛ ولسنا ندري مؤدّى لفظة «مذ ذقتها» في هذا البيت :

إني نبذت ثمارهـا مذ ذقتها ووجدت طعم العذر في أضراسي

لأننا لا نجد في سيرة حياته ما يشير الى أي اتجاه سياسي معين، ولكنه ههنا يومىء الى ذلك إيمـاءة عابرة كأنما يريد ان يذكر شيئاً عن «ماضيه السياسي»، ولكنه الى جانب ذلك يريد ان يبرىء ساحته من تلك «الخطيئة» التي ارتكبها؛ وهـا هو ذا يغسل يديه منها، فيغسل راحتيه بذلك من جميع الاوضار والارجاس ...

وغسلت منها راحتي فغسلتها من سائر الأوضار والادناس

هذا من حيث موقفه من السياسة، اما نظرته اليها فهي فضلاً عن كونها مجمع الاوضار والادناس، يراها شتى الوجوه، متلوّنة، تلبس لكل حالة لبوسها الذي يلائمها وتحمل بالتالي معتنقها اشدّ ما يكون خبثاً وتلوّناً .

لا تخدعنكم السياسة، إنهـا شتى الوجوه كثيرة الألوان

اما معتنقوها فهم برأي الشاعر احد اثنين: غرٍ ساذج او مشعوذ دسّاس!.. وأكرمْ بها من رجلين !!. والسياسي، بعد هذا، متآمرٌ أبداً على موطنه وعلى قومه فهو إما مجرم دنيء او لص سافل !..

وأية صفات يمكن ان يتصورها الانسان للمخلوق المنحط من جميع جوانب الانحطاط الخلقي اكثر من ان يكون سياسياً على الشاكلة التي يريدها، او التي صوّره بها، أبو ماضي عندما قال :

وتركتها لاثنين : غرٍّ ساذج ومشعوذٍ متذبذبٍ دسّاسِ[١]

١ – الضمير في لفظة «تركتها» يعود على السياسة .

يرضى لموطنه يصير مُواطناً   وتصير أمته الى أجنـاسِ
ويبيعهـا بدراهم معدودةٍ   ولو انها جاءت من الخناسِ[1]

على اننا إذا احببنا ان نستقرىء رأي الشاعر الآن في السياسة وجدناه وقد تركها حقاً وصدقاً ، ونفض منها اليدين نفضاً ... اما لمن تركها؟ فلسنا ندري إن كانت تصدق وجهة نظره من ان السياسيين احد اثنين: غر ساذج او مشعوذ دَّساس ... ؛ لاننا نرى الساسة اليوم وقد ملؤوا الدنيا طولاً وعرضاً كما كان الادباء ، في عصور الأدب العربي ، يملؤون دنياهم أدباً وشعراً ...

رأيه في الحياة :

مظاهر الحيـاة متشعبة متشابكة لا تكاد تقوى على فصل بعضها من بعض لتحديد رأي الشاعر في كل مظهر من مظاهرها ؛ فالحيـاة من حيث هي خير وبركة او شر وسوء ، والحيـاة من حيث هي هدوء وطمأنينة او اضطراب وخوف ، والحياة من حيث ناسها ومعاملاتهم واحلامهم وطباعهم التي طُبعوا عليها ، كل هذه تتشابك عند الشاعر اشتباك الحياة بمظاهرها ؛ ولسنا نجد له رأياً مستقلاً في موضوع ما منها يلامسه ويُلحُّ عليه ، ولكننا الى جانب ذلـك نجد هذه اللمحات التي يومض فيها رأيه كلما ساقته مناسبة من المناسبات للاعراب عن هذا الرأي ... فهو اذا وصف معركة من المعارك ، او عاش في اطار من سني الحرب ، كالحرب العالمية الأولى ، نراه يعالج موضوع السلم والحرب ، ويدلي برأيه في اخلاص وعمق . فان كانت المعركة ضد الأتراك فرحباً بالحرب لا تُبقي منهم ولا تذر ... وان كانت بين الانكليز والألمان فهو ذاك الوصاف الذي يستشرف على القوم من عل ويصف ما يقع تحت حواسه من مشاهد لغرض الوصف العميق او التحليل الدقيق ...

١ – الجداول ص ١١٥ .

على ان رأيه في السلم والحرب كرأي « الانسان » الحريص على هذه الانسانية من ان يُفني بعضها بعضاً ، فناءً مادياً وفناءً معنوياً :

يا صاحبي ليس الوغى من مذهبي   هاتيك وسوسة من الشيطانِ
فالناس اخوان وليس من النهى   ان يفتك الاخوان بالاخوانِ
الحرب مجلبة الشقاوة للورى   والحرب يعشقها بنو الإنسانِ

ومن هنا يتلامح لك رأيه في هذا « الانسان » المطبوع على الشر ، فهل يعنى هذا ان الانسان الشرير شرير في كل مظهر من مظاهر الحياة ؟

ان الشاعر ليقف موقفاً واحداً من هذا الانسان ، وانه ليبدي رأيه عن تجربة وطول مرانة وخبرة فيقول :

وانك لو خبرت الناس خُبري   زهدت الخلق زهد أبي ترابِ
هم اما غبيٌّ ليس يدري   وذو علـم ولوع فالتغابي
لهم صور الملائك والاناسي   واخلاق الابالس والذئابِ

ومن هنا يطل علينا بنظرته الاجتماعية العميقة ، فيتحدث عن هذا التقسيم الاجتماعي وتوزيع الطبقات بين فقير وغني ، ولا حد وسط بينهما ، فنجده في اكثر شعره اجتماعياً ناضجاً ، يدعو الى الرأفة بالفقير ومساعدته ومساندته حتى لا يكون هناك فقر ولا فقراء .

فقصيدته « الفقير » يعالج بها موضوعاً اجتماعياً عميق الجذور ، فيشرع في وصف هذا الانسان المنكود ، الذي أرادت له الحيـاة ان يكون فقيراً ، فالهم ابداً خدينه ولصيقه ، والتعاسة ابداً قرينه وصديقه ...

همّ ألمّ به مع الظلماء   فنبا بمقلته عن الاغفاء

ونجـده في مناجاته الليل يكاد يبلغ ذروة الابداع في تصوير بأس هذا الانسان الشقي :

يا ليل قد اغريت جسمي بالضنى   حتى ليؤلم فقــده اعضائي

يا ليل ما لك لا ترق لحالتي   أتراك والايـام من اعدائي ؟

يا ليل حسبي ما لقيت من الشقا   رحماك لست بصخرة صمـاء

اما موقف الشاعر من هؤلاء الفقراء فألمٌ لما بهم :

إني لأحزن ان تكون نفوسهم   غرض الخطوب وعرضة الارزاء

ثم الى جانب هذا الألم نجد دعوة لانقاذ الفقير مما به وإشعاراً للغني بأنه مصنوع من طينة ذلك الفقير :

لهفي، ولو أجدى التعيس تلهفي   لسفكت دمعي عنده ودمائي

قل للغني المستعز بمـاله   مهلاً، لقد اسرفت في الخيلاءِ

جبل الفقير، اخوك، من طين ومن   ماء، ومن طين جبلت وماءِ !

ونجده في قصيدة «كلوا واشربوا» ينزع منزعاً آخر في التعبير عن بؤس الفقير، اذ يعمد الى هذه السخرية البارعة، يجعلها سبيله للابانة عن وجهة نظره... فهو يلوم الفقراء على فقرهم ويهنيء الاغنياء الذين يمتصون دماء الفقراء ... ثم يسرف في لوم الفقير وتأنيبه لانه يشكو ويتذمر ... ثم يصرخ صرخته المرعبة ليجعل الاغنياء في جهنم خالدين ...

فانظر معي في هذا المطلع البارع :

كلوا واشربوا ايها الاغنياء   وان ملأ السكك الجائعون...

إلى ان يتجه بكلامه الى الفقراء يلومهم من حيث يريد تعزيتهم عما آل اليه حالهم :

ويا فقراء لماذا التشكي   ألا تستحون، ألا تخجلون

دعوا الاغنيـاء ولذاتهم   فهم مثل لذاتهم زائلون

سيمسون في سقر خالدين   وتمسون في جنة تنعمون!!!

. . .

نفسيته :

ذهبنا في مطلع هذه الدراسة الى ذكر اسباب هجرة الشاعر عن بلده، لبنان، وأبنا عن نفسيته قبيل هجرته الاولى، وخلال اقامته القليلة في مصر، ثم رحلنا مع الشاعر الى امريكا لنرى معه لوناً من حنينه الى وطنه الاول، لبنان، ثم الى وطنه الثاني مصر؛ على انه عندما ذكر لبنانه، لم يذكره بالخير اول الامر، ذلك انه خرج عنه شريداً طريداً، يفتش عن لقمته مثل ما يفتش عن حريته، لذا فقد استمعنا الى غضبة من غضباته والى صوت نقمة من نقماته؛ إذ صور وطنه موئلاً لكل جاهل وفاسق ومشعوذ ولئيم ...

إلا ان هذه الثورة – فيما يبدو – لم تكن الا ثورة مفتعلة. اذ ما تكاد تتقادم بـه الأيام وهو في مغتربه حتى تهيجه الذكريات الى وطنه، فيحن اليه حنيناً، صامتاً حيناً، ثائراً احياناً، واصبح يرى حياته في امريكا جحيماً لا يكاد يطاق :

نأى عن أرض مصر حذار ضيم   ففر من العذاب الى العذاب

حتى اذا رأى باخرة متجهة الى بلده حمّلها سلاماً «شوقاً وحنيناً»، ونداء حاراً فيه عاطفة وفيه صدق وفيه وفاء :

بيروت!.. يا بنت البحار الجاريه   فــاذا سئلت من البقايا الباقيه

قولي لهم: ان الحياة الهانيه   لم تنسنا سكان تلك الناحيه

اما الدليل فحسبنا إياك

وتعتاده عاديات الذكرى فيشعر بالغربة الروحية العنيفة ، ويتأمل النجم فيرى فيه غريباً مثله ، قلقاً لقلقه :

ما لهذا النجم مثلي في الثرى ... طائر النوم ، شديد الوجل
أتراه يتقي طـــارقة ... أم به اني غريب المنزل ؟..

ومن خلال دموعه وآلامه يتلفت الى الشرق ، ويجهش جهجة الحنين ، ويهتز اهتزاز المشوق ، ويحب من يحب وطنه :

إذا خطرت من جانب الشرق نفحة ... طربت فألقى منكباي ردائيـــا
أحن الى تلك المغــــاني وأهلها ... واشتاق من يشتاق تلك المغانيـا
إذا مثلوا والنوم يــأخذ مقلتي ... بأهدابها أمسيت وسنان صاحيا
وكيف اغتباط المرء لا الأهل حوله ... ولا هو من يستعذب الصفو نائيا ؟

وإنك لتجد في هذه القصيدة الرائعة صوراً من ألوان التشوق والحنين ، ولوناً من الشعور العميق بالغربة ، وهذا «الفضول» الصادق من المهاجر لكل مـــا يتصل بوطنه من قريب او بعيد ... فمزاوم في هذه الرسائل التي تردهم بين حين وحين . وفي هذه البرقيات التي يتناقلها الاثير لينقل اليهم اخبـــار اهليهم وذويهم ... حتى إذا دقت الحرب في العالم طبلها وزمرها ، وأعلنت إلى الملأ الادنى والاقصى أمرها ، فاضطرب الأمن وانتحر الرجاء ، وغاض الامل ، إذا العالم القريب شتيت وإذا العالم البعيد كأنه وهم من الاوهام ؛ فما عدت تسمع من صوت الانسان الا عواءه ، ولا من غناء الاطيار إلا جفاءه ، ضاع صوت «الخلوق» في ضجيج المعمل وقصف المدفع وولولة النساء الارامل وعويل الاطفال اليتامى وجئير البطن الجائع والحياء الضائع والعرض المبذول ؛ فانفصل الصقع عن الصقع وانقطع العالم عن العالم فانقطعت بذاك أخبار المهاجرين عن أهليهم ، وانقطعت أخبار أهليهم عنهم ، فاستعر الحنين ، واضطرم الشوق وقلق الخاطر بين الشك واليقين فتفجرت ينابيع العواطف فسمعنا صوت الشاعر يهتف بأسى عميق :

وكان لنا في الكتب عون على الأسى ... وفي البرق ما يدني المدى المتراميا
إذا قيل : هذا مخبر ، ملت نحوه ... بسمعي ، ولو كان المحدث واشيا
وتعلم نفسي انه غير عــالم ... ولكنني أستدفع اليأس راجيا

... وتحتدم الشكوك لانقطاع اخبار الاهل ، فيغرق الشاعر في ليل من الشك والظنون ، ويقطع أيامه طائر النفس ، موزّع الخاطر ، ما يملك اليقين فيهدأ ولا يقنع بالشك فيستريح :

سرى الشك حتى ما نصدق راوياً ... وطال فبتنا مـــا نكذب راويا
أقضي نهاري طائر النفس حائراً ... وأقطع ليلي كاسف البال ساهيا
فــــلا هم بأموات فنبكي عليهم ... ولا هم بأحياء فنرجو التلاقيا

وللشاعر ، بعد هذا ، هذه الآهة العميقة يستريح اليها كلما ارمضه الحنين :

فله ، إذا ذكر الديار وأهله ... آه الغريب وانه الثكلان

وتسأله جارته ... أما لك أهل وإخوان ؟.. فيجيبها الشاعر بحزن سابغ :

.. .. يا جارتي !.. كان لي أهل وإخوان
قبلت الحرب ، ما بيني وبينهم ... كما تقطع أمراس وخيطان
فاليوم كل الذي في مهجتي ألم ... وكل مـــا حولهم بؤس واحزان
وكان لي أمل إذ كان لي وطن ... ...
فجردته الليـــالي من محاسنه ... كما يعرى من الاشجار أغصان
فلا المغاني التي اشتاق رؤيتها ... تلك المغاني ، ولا السكان سكان !

فهو مهاجر ، ولم يترك وطنه الحبيب ، ولم يعاني ، بعد هذا ، ما يعاني من ألم الغربة وشقائها ... وكيف هجر ذلك الوطن ليصير الى بلاد الناس [1] :

١ – الجداول ص ١١٦ – الخائل ص ٤٣ .

نغشى بلاد الناس في طلب العلى ... وبلادنا متروكة للناس
ونكاد نفترش الثرى وبأرضنا ... للأجنبي موائد وكراسي
ونلوم هاجرها على نسيانها ... واللائم الناسين أول ناس
وطني أحب الي من كل الدنى ... وأعز ناس في البرية ناسي !!

وهو يكرم وطنه لان له الفضل الاول في خلقه وتكوينه ، وهنا تطل علينا وطنيته من حيث اعتباره وطنه علة وجوده ، كما الأب علة وجود الابن :

بني وطني ! من أنا في الوجود ... وما هو شأني وما موضعي ؟
ولولاكم لم أكن بالخطيب ... ولا الشاعر الساحر المبدع !!

على ان الشاعر يحاول ان يرى وطنه الجديد عزاء عن وطنه القديم . وتعتاده هذه الفكرة مرة بعد مرة ، فينثرها في شعره بين الحين والحين وهو على يقين من ان لوطنه الأول المنزلة الأولى في نفسه دائماً وأبداً ...

فانت إذا سمعته يخاطب نيويورك :

نيويورك ! يا بنت البخار بنا اقصدي ... فلعلنا بالغرب ننسى المشرقا

فكن على يقين من ان الشاعر إنما يحاول ان يعزي نفسه ويسرّي عنها ... وقد تجده مرة أخرى يلتمس مثل هذا العزاء :

ذريني اضطرب في الارض إني ... رأيت السيف يصدأ في القراب
وما انا بالغريب الدار وحدي ... فكلّ الناس عندي في اغتراب

إلا انك واثق من ان الشاعر لا يصدر عن صدق فيما يقول في هذا المجال لانك تجد له في التشوّق الى بلده ولبنانه، بربوعه، ونيسانه، وصيفه، وقمره وناسه وما اتصل بذلك ما يجعلك تثق بصدق عاطفته حيث لا زيف ولا زيغ !

يا ليت شعري وهذي الحرب قائمةٌ ... هل تنجلي ولنا في الشام اخوان
وهل تعود إلى لبنان بهجته ... وهل أعود، وفي لبنان نيسان ؟
فأسمع الطير تشدو في خمائله ... وأبصر الحقل فيه الشيح والبان ؟..

على ان الشاعر قد بلغ الغاية في قصيدته «الشاعر في السماء»(1) عندما سأله ربه عما يشاء فهتف من اعماقه :

فقلتُ يا رب فصلَ صيف ... في أرض لبنان او شتاء
تحنّ نفسي الى السواقي ... الى الاقاحي ، الى الشذاء
الى الروابي تعرى وتكسى ... الى العصافير والغناء
الى العناقيد والدوالي ... والماء والنور والهواء

حتى اذا عجب الله من مثل هذا الشاعر الذي لم يشأ إلا ان يكون في لبنان يعيش صيفه وشتاءه وطيره وغناءه، ظنّ به الجنون... اذا بالشاعر العاشق يهتف:

فانّ لبنان ليس طوداً ... ولا بلاداً، لكن سماء !!!

. . .

على ان للشاعر رأياً خاصاً بنفسه من حيث هو شاعر ومن حيث هو صاحب رسالة يفخر ويترفع ؛ فاذا خوطب فعلى المخاطب ان يعلم اي الناس يخاطب ...

يا شاعر الدنيا وفيك حصافةٌ ... ...
إن يغضبوا مما اقول، فطالما ... كره الاديبَ جماعةُ الغوغاءِ
او ينكروا أدبي فلا تتعجبوا ... فالرُمد يؤلمهم طلوعُ ذُكاءِ

١ — الخمائل ص ٦٧ .

أما من حيث هو صاحب رسالة فواضح من قوله :

او كلما نصر الحقيقة فاضل   قامت عليه قيامة السفهاءِ ؟

ومن اراد ان يعلم مَن هو صاحب الرسالة، فالشاعر يدلك على نفسه مفتخراً – على ما جرى عليه من تقدمه من الشعراء – ، او لعله نسجاً على منوال «أمير الشعراء» :

كأنيَ لستُ أمير الكلام   ولا صاحب المنطق الأنفس

ويرى الشاعر بعد هذا انه ارفع من ان يتدنى الى مرتبة معاقرة الخمرة او يتهاوى الى مراتب ذل الهوى، ففيه من الخلق ما يربأ به عن ان ينحدر الى هذه المهاوي :

ابت نفسي النزول الى الدنايا   وقلبي ان يميل الى التصابي

فما دانيت أقداح الحميا   ولم أهم بغانيـــة كعابِ

وهذا لا يتعارض مع ما سبق ان ذكرناه له من بعض النسيب، لانه جرى في ذلك مجرى من تقدمه من الشعراء . ومن هنا يبدو لنا ان جذوة الحب الخالدة لم تلامس قلب الشاعر الكبير، لانها لو فعلت ذلك لوجدنا له غير هذا اللون من القول الذي يعتبر التصابي لوناً من ألوان النزول الى الدنايا !

ثم انه زاهد في لذاذات الحياة، ما يجد في نفسه نزوعاً الى الطمع ولا ميولاً الى الهوى، في حين انه يؤمن بأن الظفر رهين الطامع الطامح[١] . والشاعر حين يعتنق هذا المذهب يعلم علم اليقين انه ان فعل ذلك فقد عرى الرياض من شذاها وبهاها، وحرم الطير من جمالها وحلاها ؛ فاستمع اليه في قصيدته العيلية يقول :

١ – هل تنسى قول أمير الشعراء :

شباب قنــع لا خير فيهم   وبورك في الشباب الطامحينا ؟

اني صرفت عن الطاعة والهوى   قلبي ، ولا ظفرٌ لمن يطمع

فكأنني البستانِ جرّد نفسه   من زهره المتنوع المتضوّع

وكأنني العصفور عرّى جسمه   من ريشه المتلاصق المتلمّع[١]

وقد تنفر بعض النفور من لفظة «المتلاصق المتلمع» ولكنك في مجال يسمح لك بالتجاوز عن اللفظ للوصول الى المعنى الذي يريد اليه الشاعر من الاعراب عن انصرافه عن الطاعة وعن الهوى ؛ فهو إذن ميال الى القناعة رغم يقينه بأن الظفر في الطموح ، وهو راغب عن الهوى واللذاذات ، في حين نعرف ان الشاعر يرى – فيما سبق له من شعره – ان الحياة في اللذة ، واللذة في الجهل فهو يدعو قلبه الى ممارسة هذا الجهل في مثل قوله :

ايها القلب الذي في أضلعي   انمـا اللذة جهلاً فاجهل

اليأس :

تبتدىء مظاهر اليأس لدى الشاعر في شكل يأس من أمته ووطنه عندما نزح عن دياره واتجه الى مصر اول الامر ؛ وقد أبان عن هذا اليأس بقصيدة من جيد شعره ، وهي التي مطلعها :

أزف الرحيل وحان ان نتفرقا   فإلى اللقا ، يا صاحبيّ ، إلى اللقا

فهو في هذه القصيدة يائس من وطنه :

وطن أردناه على حب العلى   فأبى سوى ان يستكين الى الشقا

١ – الجداول ص ٧٧ .

وطن يضيق الحر ذرعاً عنده ... وتراه بالاحرار ذرعاً أضيقا
مشت الجهالة فيه تسحب ذيلها ... تيهاً ، وراح العلم يمشي مطرقا

ويائس من بني وطنه :

شعب كما شاء التخاذل والهوى ... متفرق ويكاد ان يتمزقا
لا يرتضي دين الإله موفقاً ... بين القلوب ويرتضيه مفرقا
لم يعتقد بالعلم وهو حقائق ... لكنه اعتقد التمائم والرقى

وهو يائس من حكومته :

وحكومة ما إن تزحزح احمقا ... عن رأسها حتى تولي احمقا
راحت تناصبنا العداء كأنما ... جئنـــا فرياً او أتينا موبقا
وأبت سوى إرهاقنا ، فكأنما ... كل العدالة عندها ان ترهقا

وبعد هذا هو يأس من البلاد العربية جميعاً :

بغداد في خطر ومصر رهينة ... وغداً تنال يد المطامع جلقا
ضعفت قواتها ولما ترعوي (؟) ... عن غيها حتى تزول وتمحقا
قبل اعشقوها قلت : لم يبق لنا ... معها قلوب كي تحب ونعشقا

ثم يلتفت وقد بلغ اليأس منه مبلغه ليقول :

كلما فكرت في حاضرنا ... عاقني اليأس عن المستقبل (١)
قد مشى الغرب على هام السهى ... ومشينا في الحضيض الاسفل

---

١ - الجداول ص ٩٣ .

ويختم قصيدته « القافية » بأبيات يأخذ عليه اليأس فيها كل مخرج فيبقى رهين محبسه فيقنع بحاضره يأساً وتخاذلاً :

نفسي اخلدي ودعي الحنين فانما ... جهل بُعيد اليوم ان نتشوقا

. . .

على ان الشاعر قد جرى في هذه الحلبة من اليأس والاستسلام في مستهل فترة اغترابه ، نجده مرة اخرى في « الجداول » تخالطه هذه الفكرة ، فينقلب من يائس مهموم الى انسان استوى عنده الخير والشر والطموح والقعود، فلنسمع منه في قصيد « بردي يا سحب من ظمأي » (١) لوناً من ألوان اليأس مكسواً بثوب من أثواب الحكمة .

والقصيدة ، برمتها ، تُعرب عن وجهات نظره كشاعر يعنى باللامبالاة ، وبالقنوع ، ويتجاهل الغد وما سيأتي به ، وباليأس ... وتقع على عينيه غشاوة اليأس القاتل فلا يرضى ان يصدق هذه الاوهام التي تتناثر بين يديه نثراً ، ويعود مطالباً بالتحقيق من صدق الاشياء والأمور عن طريق الاحساس ... وفي هذه القصيدة الرائعة يأس ، ولكنه يأس محبب ، مقبول ، يقع من النفس موقعاً رضياً ، طيباً ، فتتقبله تقبلاً جميلاً ، لا لنستسلم بعدها لليأس والهم وانما لنجد في كل شيء زوالاً !.. فيأسه بنّاء ، لا هدام !..

والشاعر قانع عن يأس عندما يقول :

رضيت نفسي بقسمتها ... فليراود غيري الشهبا

حتى إذ أومأ اليه إنسان من طرف آخر مشيراً الى ما سيأتي به الغد ، حاضاً إياه على السعي له والاحتفاء به قال :

---

١ - الجداول ص ٩٣ .

ما غد؟ يا من يصوره لي شيئاً رائعاً عجيبا
ما له عين ولا أثر هو كالأمس الذي ذهبا (١)

وهنا نحس ببعض الثورة التي تجتاح نفس الشاعر وهو يصور هذا القول ، وزاه ، من طرف خفي قد أشار مرة بعد مرة ، الى معتقده في الحشر واليوم الآخر ، مما سيأتي بحثه في موضعه من هذه الدراسة ...

ولكن هذا اليأس من أمسه ويومه وغده لا يدعوه الى الفكرة «العدمية» التخريبية ، وإنما يدعوه – لسمو نفسه ونفسيته – الى البناء ، لا من اجل المستقبل وإنما من اجل اليوم الذي يعيش فيه وله !..

وقد يتراءى لانسان ما ان يشير الى ان الحشر واليوم الآخر امر ان لا خلاف فيهما ، فهما صدق وحق في جميع الشرائع السماوية ... ولكن الشاعر يسارع ليدحض هذا الرأي ، مبيناً عن فكرته بشيء من الغموض :

إن صدقاً لا أحسّ به هو شيء يشبه الكذبا (٢)

فهو من هذا الجانب يعتمد على «الحس» كواسطة للمعرفة واليقين . إلا ان هذا اليأس ، كما قلنا ، لم يكن ليدعوه الى الانطوائية او العدمية (٣) وإنما قاده الى لون من «اللامبالاة» :

ما على من لا يطيق يرى ثوَرَ الوادي او اكتأبا
ما يفيد الطير في قفص ضاق هذا الجو او رحبا؟

١ – الجداول ص ٩٣ .
٢ – الجداول ص ٩٣ .
٣ – (Nihilist) .

فكأنه بذلك يشير إلى انه سجين الحياة ؛ وقد استوى عنده ، بالتالي ، سعة الفضاء ، ومحدوديته ، وضيقه !

وهذه اللامبالاة لم تصل الى مرتبة الاهمال ، وإنما استمد منها الشاعر قوة لتكون لوناً من ألوان التفاؤل :

أنا من قوم اذا ما حزنوا وجدوا في حزنهم طربا
وإذا ما غاية صعبت هوّنوا بالترك ما صعبا (١)

فهو من هذا الجانب يسير مع احد فلاسفة اليونان الذي يرى ان لكل جرة أذنين اثنتين ، إن لم تمسك من واحدة تمسك من الاخرى ؛ وذاك مثل قول الشاعر : «هوّنوا بالترك ما صعبا» .

ولا جرم ان اليأس مستحكم من نفس الشاعر ، فهو يهوّن الامور بلا مبالاته ولكنه في اعماقه تتنحنح زمجرة عميقة الجذور ، وتتلامح بوادر ثورة تقذف الحمم ؛ ويتمكن الشاعر من اعصابه فيطلب الى السحب ان تبرد ظمأه ...

برّدي يا سحب من ظمأي واهطلي من بعد ذا ذهبا
او فكوني ، غير راحمة ، حمماً حمراء لا سحبا
ولأكن وحدي لها هدفاً ولتكن نفسي لها حطبا (٢)

فما هذا الظمأ الذي حطم اعصاب الشاعر وتركه في لواب ما بعده لواب ، يطلب الى السحب ان تروي هذا الظمأ ... ثم يرتدّ الى نفسه فيطلب اليها ان تكون الحمم الحمراء التي تطوح به وحده ويأمر ان تكون نفسه لها حطبا ؟!!!

١ – الجداول ص ٩٤ .
٢ – الجداول ص ٩٣ .

ويعود مرة اخرى هادئاً بعد ثورة ، ويؤمن – خلافاً لما كان يرى – ان لا راحة له إلا في الخمرة وليترك الناس ما للناس بعد هذا الذي عاناه من اليأس المرير :

لم يبق ما يسليك غير الكاس   فاشرب ودع للناس ما للناس[1]

فاذا ما همك أمر من امور الدنيا وسيطر عليك سيطرة كادت تذهب بلبك فان دواء هذا كله ؛ الكاس :

وانس الهموم ، فليس يسعد ذاكر   واسق النجوم فـانها جلاسي
واصرع بها عقل النديم ولبـه   ما نفس الحامي كعقل الحاسي[2]

ويبدو بعد هذا كله ان الشاعر حائر في امر يأسه ، فهو تارة راضٍ عنه ، وهو تارة ساخط عليه ؛ وبين رضاه وسخطه تتلامح اقباس من التفاؤل والتشاؤم واللامبالاة والدعوة الى التخلص من الهموم ، ومعاقرة الخمرة ...

فهناك بالتالي صراع عنيف بين الشاعر وأحاسيسه ، وسنرى في المستقبل من الكلام ان نزعـة التفاؤل هي التي تغلبت على الشاعر وجعلته رسولاً من رسل الانسانية العميقة التي تحب الحياة كل الحب، لا طمعاً بالحياة، ولكن لانها خير مطلق كما قال رامبو : الحياة طيبة ، اني أباركك على الحياة !!..

اما هذا الصراع الهائل بين الشاعر وضميره فقد قاده بالتالي الى تبـلد في الاحساس جعله يؤمن انه صخرة صماء عليها ألا تحس وألا تشعر[3] :

كنت حتى مع ضميري   أمس في حربٍ عوان

---

١ – الجداول ص ١١٥ .

٢ – الجداول ص ١١٥ .

٣ – قصيدة «زهرة الاقحوان» ، الجداول ، ص ١١٧ و ١١٨ .

لا أرى في الحر معنى   ولكم فيها معان
لم يعـد قلبي كالبر م   ق شديد الخفقان
لم تعد نفسي كالنجـة   ذات اللمعان
بت لا ابكي لظلو م   ولا حر مهـان
صرت كالصخر سواء   هـادم عندي وبان

. . .

وبعد ، هل كان الشاعر الكبير يتحدث عن نفسه حديث من يعرفها حقّ المعرفة ؟... وما الذي يريده من لفظة « النفس » ؟... يغلب على الظنّ ان الشاعر كان يصدر عن نفس شاعر يعالج ما تنطوي عليه نفسه من مشاعر دون ان يحدّد مفهوماً معيناً لـ « النفس » ؛ إلا انـه عندما نظر في نفسه بعد ذلك وجدها كذاك الذي كان يفتش عن الزمن وهو عائش في إطاره دون ان يحاول البحث في كنهه وصفنه .

فما هي « النفس » في عُرف الشاعر ؟..

يبدو لنا ان شاعرنا الكبير قـد اطلع على القصيدتين المصاوين في موضوع النفس ، والاولى للشيخ الرئيس ابن سينا ومطلعها :

برزت اليك من المحلّ الأرفع   ورقـاء ذات تعزز وتمنّع

والثانية لامير الشعراء أحمد شوقي ومطلعها :

ضمي قناعك يا سعاد او ارفعي   هذي المحاسنُ ما خلقن لبرقع

وبعد ان اطلع عليهما حاول ان يعارضهما معاً ليصل الى النتيجة الرائعة التي يبحث عنها : وهي ان النفس مع الانسان وليست منفصلة عنه وليست مشتبكة مع الروح !

ولا جرم ان قصيدة ابي ماضي في « النفس » تعتبر من رائع الشعر وهي التي مطلعها :

انا لست بالحسناء اول مولع هي مطمع الدنيا كما هي مطمعي[1]

والشاعر اذ نظر محاولاً التعرف على هذه النفس وجد انه لا يعرف عنها شيئاً اول الامر بعد ان فتش عنها طويلاً في كل مكان :

فتشت جيب الفجر عنها والدجى ومددت حتى للكواكب إصبعي

واخذ يسائل نفسه عن كنهها :

ألمحتها في صورة ؟.. أشهدتها في حالةٍ ؟.. أرأيتها في موضع ؟..

ولكنه مع هذا يستشعر جمالها من خلال نفسه :

إني لذو نفس تهيم ، وانها لجميلة فوق الجمال الابدع

ثم تراءى له أنه علم عنها شيئاً ، فهي تارة كالصوت :

وتزيد في شوقي اليها انها كالصوت لم يسفر ولم يتقنع

وهي بعد هذا محجوبة إلا عن المتزهد :

قالوا تورّعْ ، إنها محجوبةٌ إلا عن المتزهـد المتورع

وزاد شوقه الى معرفتها شيئاً ، فرنا اليها في نومه يطلبها :

وهجعت احسب انها بنت الرؤى فصحوتُ أسخر بالنيام الهجّع

ثم حسبها زهرة ونجما :

لما حلمت بها حلمت بزهرةٍ لا تجتنى او نجمة لم تطلع

١ – الجداول ص ٢٦ وما بعدها .

فلما صحا من هذا لم يجد إلا ظله ... ثم اخـذ يغرق في ليل من الشكوك والتساؤلات ، فلما دنا من معرفتها دنا من مصرعه :

وحسبتني أدنو اليها مسرعاً فوجدت اني قد دنوت لمصرعي

ثم ظنها – فيما ظنها – انها في غيم الشتاء وفي رعده وفي برقه ، فلما يئس من الوصول الى معرفتها بكى ، فلمحها في أدمعه وادرك اذ ذاك هذه الحقيقة الرائعة :

وعلمتُ – حين العلم لا يجدي الفتى – ان التي ضيعتها كانت معي[1]

التفاؤل :

اذا انا لم أجد حقلاً مريعاً خلقت الحقل في روحي وذهني[2]

فكادت تملأ الازهار كفي ويعبق بالشذا الفوّاح ردني[3]

على مثل هـذه القدرة الجبارة في الخلق والابداع نشأ الشاعر اول نشأته الادبية ، فهو الذي يبدع كونه الخاص ورياضه الغناء ومجاليه الساحرة الفاتنة ليرتع في افيائها وظلالها ومفاتنها معرضاً عن قسوة الحياة وأظلم الواقع وافتقد الامل !

تجد هذا الشعر في « الخمائل » – وهو آخر دواوين شعره – كما تجده في الجزء الثاني من ديوانه ، كما تجده ايضاً في الجداول ... ومن هنا يتضح لك ان التفاؤل نزعة انسانية عميقة الجذور في نفس الشاعر وان كان يعلوها بين الحين والحين غبار الزمن فيخلع على بهائها وجمالها مسحة من الكآبة والحزن والأسى !

١ – الجداول ص ٢٨ .

٢ – الخمائل ص ٢٨ .

٣ – الردن : الكم .

ومن خلال هذه النزعة التفاؤلية العميقة التي سنأتي على ذكرها يتلامع لنا ان الشاعر قادر كل القدرة على ان يعيش الحياة التي يريدها في اطار من التفاؤل ، ولو اقتضاه الامر التجرد من احساسه لما كان ذلك الا اهون الامور واسهلها واكثرها يُسراً ...

الحسّ مجلبة الكآبة والأسى قمْ ننطلق من عالم الاحساس
وأرى السعادة لا وصول لعرشها الا بأجنحةٍ من الوسواس

وواضح ان الشاعر لا يريد بلفظة « الوسواس » تلك الشكوك التي تأكل العقل والقلب والفكر ، وانما يريد اجنحة الخيال التي يطير بها الى عالم أفيح حيث لا ألم ولا شقاء !

ومثيل هذا الشاعر الكبير الذي يدعو الى الحياة في عالم الرؤى والاحلام بعيداً عن عالم الاجسام والآلام جدير بأن يضفي على حياة الانسان ، الغارق في الشرور والآثام والتعاسة والشقاء ، لوناً من الوان البهجة والمرح والهدوء والراحة !

وتتلامع لنا هنا مبادىء نظرية أبيقور في الاخلاق[1] الذي ذهب « الى ان اساس الاخلاق اللذة[2] ، فاللذة وحدها غاية الانسان ، وهي وحدها الخير ، والألم وحده هو الشر الذي يفر منه الانسان ويتجنبه ، والفضيلة ليست لها قيمة ذاتية ، انما قيمتها فيما تشتمل عليه من اللذة ... » الى ان قال : « ان خير لذة يتطلبها الانسان هدوء البال وطمأنينة النفس » .

١ – ارجع الى كتاب « قصة الفلسفة اليونانية » تصنيف الاستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩ ص ٣١٦ وما بعدها .

٢ – يخطىء من يذهب الى ان الابيقوريين انما يريدون باللذة المتاع الجنسي الغريزي ، ارجع الى المصدر السابق ص ٣١٧ ، سطر ١٤ وما بعده .

وما دام الانسان شريراً ، والشر أصيل فيه :

تتحوّل الأفلاك عن دورانها والشر في الانسان لا يتحول

علينا ان نتغلب على هذا الشر الاصيل بخير شامل عام نجعله هدفنا وسبيلنا في هذه الحياة ، ولا سبيل الى ذلك إلا بلون من ألوان التفاؤل نخلعه على الحياة بكامل مظاهرها ، فلا نرى في الرياض اشواكاً وانما نرى فيها الأزهار الجميلة .

وأصدق مثال على نزعته الانسانية العميقة التي تنزع الى إبراز ما في الحياة من جمال وروعة وبهاء قصيدته الخالدة « فلسفة الحياة » :

أيهذا الشاكي !.. وما بك داءٌ
كيف تغدو اذا غدوت عليلا ؟...
إنّ شرّ الجناة في الارض نفسٌ تتوقى ، قبل الرحيل ، الرحيلا..

فالجمال كائن في نفس الانسان ، منبثق عنها ، ومن حُرم هذه النعمة فقد حُرم السعادة الحقيقية التي لا حقيقة سواها :

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلا
هو عبءٌ على الحياة ثقيل من يظنّ الحياة عبئاً ثقيلا

وعلى الانسان بالتالي ان يعيش وفق طبيعته وألا يُغرم باصطياد الهموم والتقاطها ، ذلك ان الحياة الجميلة التي جعلته يعيش في مراتعها سوف لا ترحمه ان كفر بنعمة جمالها :

كلّ من يجمع الهموم عليه أخذته الحياة أخذاً وبيلا

ثم ... هل انت قادر على ردّ القضاء ؟.. فان كنت واثقاً من ان للحياة مشيئة فعليك ان تعيش وفق مشيئة الحياة وان تصرع الهم وتخلق البهجة ، لأنها

جوهرٌ كامن في نفسك، وما عليك الا ان تزيح الغبار عنه ليخطف الأبصار نورُه !

اما اذا كنت تُصر على يأسك وألمك ومحاربتك لمشيئة الحياة فما عليك الا ان تفعل هذا :

حكم القضاء، فان نقمت على القضا   فاضرب بعنقك مدية الذبّاح !!!..

اما اذا كنت ترى غير هذا، وتؤمن ان الجمال كان في نفسك فأنت بالتالي ترى كلّ شيء جميلاً فاتناً جذاباً...

أيهذا الشاكي وما بك داءٌ   كن جميلاً تر الوجود جميلا

ولا يعني هذا انه لا يُقر بوجود الهمّ والألم، فالذي بَلا الألم وخبره يعرف موقع الهمّ من نفسه :

ليس يدري الهمّ غير المبتلي   طال جنح الليل او لم يطل

ولكنه يريد ان تحارب هذا الهمّ وهذا الألم معاً كان منشؤهما ومصدرهما ؛ وفي مجالات الصداقة يتجاوز عن خطيئات اصدقائه ومساوئهم لينعم بصداقتهم غير مشوبة :

اني، اذا نزل البلاء بصاحبي   دافعتُ عنه بناجذي وبمخلبي (١)
وأرى مساوئه كأني لا ارى   وأرى محاسنه وإن لم تكتب
وألوم نفسي قبله ان أخطأتْ   وإذا أساء اليّ لم أتعتب

ويا أيهذا اليائس، الشقي بنفسه، كيف تدعي العُدم والفقر وملك يمينك هذي السما وتلك الأنجم :

١ – الجداول ص ٥٣ .

كم تشتكي وتقول إنك معدم   والارض ملكك والسما والأنجم

وتتنزّل منزلة قصيدة «فلسفة الحياة» قصيدته «ابتسم» (١) وقصيدته «كن بلسما» (٢) ومطلع الأولى :

قال: السماء كئيبة، وتجهما   قلت: ابتسم، يكفي التجهم في السما

وفيها امثلة بارعة تريك قدرة الشاعر على ان يرى في كل شرّ خيراً ولا يرى في أي شرّ شراً ناهيك عن ان يرى في الخير شراً !!!

والقصيدة الثانية «كن بلسما» ومطلعها :

كن بلسماً إن صار دهرك أرقما   وحلاوةً ان صار غيرك علقما

وإنك تجد فيها مثل هذا التفاؤل البارع :

كره الدجى فاسودّ إلا شهبه   بقيت لتضحك منه كيف تجهما (٣)

فاذا أضفت الى هذه القصائد قصيدته «ابسمي» (٤) التي مطلعها :

ابسمي كالورد في فجر الصباء   وابسمي كالنجم إن جنّ المساء
وإذا ما كفن الثلج الثرى   ...   .
وتعرّى الزهر من ازهاره   ...   .
فاحلمي بالصيف ثم ابتسمي   تخلقي حولك زهراً وشذاء

١ – الخمائل ص ٣٨ وما بعدها .
٢ – الخمائل ص ٥٠ وما بعدها .
٣ – الخمائل ص ٥١ .
٤ – الخمائل ص ٧٤ .

وإذا أعياك ان تعطي الغنى   فافرحي انك تعطين الرجاء

عرفت لون التفاؤل الذي اخذ به الشاعر نفسه ليضفي على حياته القاتمة أصباغ البهجة والمرح والسعادة . ويكفيك ان تقرأ هذه القصائد التي أشرت اليها ، تقرأها بإمعان وتروٍّ وبصر لتدرك كيف يستطيع الانسان ان يخلع على كل مظهر من مظاهر الحياة بهجة ما بعدها بهجة ، وجمالاً ما بعده جمال !

ويكاد الشاعر يبلغ ذروة الابداع والقدرة على التفاؤل عندما يرى في جهنم (لمن يخشاها) انها ليست اكثر من فكرة تاجر ، اما الله – عز وجل – فلا يمكن ان يخلق لنا شقاء :

كم روعوا بجهنم أرواحنا   فتألمت من قبل ان تتألما

ليست جهنم غير فكرة تاجر   الله لم يخلق لنا إلا السما[1]

. . .

ولعل لمعتقد الشاعر علاقة وثيقة بهذا التفاؤل الذي يرين على حياته .

وهنا نجد انفسنا امام معتقده . واذا حاولنا ان نجزّىء المبحث ، فنبين رأي الشاعر في قضايا « ما وراء الطبيعة » كالذات الالهية ثم قضية الحشر والخلود، والمبتدأ والمنتهى ، ثم نشير الى رأيه في القدرية والجبرية واللاأدرية ، لزمنا ان نعقد لذلك الفصول الطوال ، وهي موضوعات جديرة بأن تُعقد لها تلك الفصول حتى لا يترك فيها الباحث زيادةً لمستزيد . ولكنني احسب في بعض الاشارة ما يغني عن كثير من التطويل ، وبعض اللمحات تفتح الآفاق امام أولئك الذين يتقصون أمثال هذه المباحث ليجدوا في هذه اللمحات أقباساً تهديهم وتأخذ بيدهم الى حيث المجال اوسع والميدان أجمع .

. . .

١ – الخمائل ص ٥٢ .

معتقد الشاعر :

ما قيمة الانسان معتقداً   ان لم يقل للناس ما اعتقدا[1]

مـاذا يفيد الصوت مرتفعاً   إن لم يكن للصوت ثَمّ صدى

من هنا تتضح لنا دعوة الشاعر لاظهار معتقده، ذلك انه يعتقد ان من يعتقد اعتقاداً ثم يخفيه فكأنه ما اعتقده ، وبالتالي لم يصل به الى الغاية المرجوة من اعتقاده .

فما هي معتقدات الشاعر ؟

معتقداته – كما رأينا – لونان : أحدهما يتصل بنظراته في الحياة كالتفاؤل وما شابه ذلك ؛ وثانيهما يتصل بما هو من صميم « المعتقد » ؛ وقد ينتظم في سلكها غرض الحكمة لانها تنبىء عن آراء الشاعر التي تتنزل منزلة المعتقدات ؛ الا ان الغرض من لفظة « معتقد » في هذا المبحث انما هو النظرة الى الحياة من وجهة نظر الدين ؛ فثمة حديث في الله تعالى ، وفي الانبياء والدين ، وفي الجبرية ، ثم القضايا الكبرى التي شغلت الفكر منذ أحسّ بوجوده على ظهر الارض « من اين جئت ؟ من أنا ؟ الى اين أصير ؟ » ، وأخيراً رأيه في الخلود . . .

وعندما يعرض الشاعر الكبير لهذه القضايا الكبرى تجده يعالج موضوعاتها بشيء من اليُسر والسهولة دون اي تحرّج ، وكأنه يصف منظراً جميلاً ، مما يومىء الى ان اعتقاده لها لم يكن فيه تكلف او تعنت او مشقة ، فهو بهذا قد جرى وفاق طبيعته ، وما يمليه عليه خاطره وفكره وعقله !

. . .

١ – من قصيدة «ولم أجد أحداً» .

الله ومشيئته :

ليس هنالك وضوح في رأي الشاعر في هذا الموضوع الخطير ؛ فلست تلمح الحاداً وكفراً، كما لا تلمح ايماناً واضحاً . فمرة يقول :

آمنت بالله وآياته أليس ان الله بارينا[1]

ومرة اخرى ترى لديه لوناً عميقاً من الايمان الذي يرى الله في كل مظهر من مظاهر الطبيعة ؛ اما عندما ورد ذكر الله مباشرة ، فانه رآه (تعالى) فكراً ثم حساً وشعوراً ، ثم رآه « ديوان شاعر » !!!

قال لي ابني وهو حيران بما يحكي ويقرا
كيف كان الله ؟.. إني قد وجدت الله سرا
أسمع الناس يقولون به خيراً وشراً
فأفدني ...

قلت : يا ابني انا مثـــل الناس طراً
لي في الصحة آراء وفي العلة أخرى
كلما زحزحت ستراً خلتني اسدل سترا
لستُ أدرى منك بالأمر ولا غيري أدرى[2]

١ – الخمائل ص ٨٨ .
٢ – الخمائل ص ١٠٨ .

وإذا تابعت قراءة القصيدة وجدت الشاعر وقد رأى الله « فكراً » و« حساً » و « شعوراً » ، ثم « ديوان شاعر » !...

أما من حيث مشيئته ، فواضح ان الشاعر في جملة منظومة يؤمن ايمـــاناً لا يعتوره الشك انه « مسيّر » لا « مخيّر » ؛ يشير الى ذلك في أي موطن يعرض فيه مثل هذا المجال للاعراب عن الرأي .

اراد الله ان نعشق لما أوجد الحسنا
مشيئته .. وما كانت مشيئته بلا معنى[1]
. . .
فان أحببتَ ماذنبك، او أحببتُ ماذنبي؟.

ثم :

إذن فاحيَ ومت كالناس عبداً غير مختار[2]

فان كان الشاعر يرى انه مسير لا مخير ، فمعنى هذا بالضرورة ، ان هنالك مسيراً يُسير الى مصير معلوم ...

ولكننا نجد الشاعر ينكر انكاراً بعيداً هذا المصير ، فهو تارة حـــائر لا يدري ما يعتقد في مسألة « المصير » وتارة مطمئن انه صائر الى فناء !

ولعل في قصيدته الخالدة « الطلاسم » آراءه جملة وتفصيلاً في هذا الموضوع الخطير ...

١ – الجداول ص ٣٤ .
٢ – الخمائل ص ١٠٤ .

والشاعر في جميع مجالات هذا الموضوع حائر ، حائر في امر نفسه ، وحائر في امر امسه ، وحائر بالتالي في يومه وغده ، كأنما يمشي في ظلمات متراكم بعضها فوق بعض :

يا ليل ! أين النور ؟ إني تائهٌ ... ـر ينبثق . ام ليس عندك نور ؟[1]

والشك يأخذ به من كل جانب ، شك في كل شيء وفي كل امر . وقد ذهبت الآنسة فدوى طوقان الى ان شاعرنا متميز بأنه منتسب لمدرسة « اللاأدريين » [2] ظناً منها انها مدرسة الشك التي يراد منها « المذهب القائل بأن معرفة الحقائق في هذا العالم لا يمكن الوصول اليها ، أو يُشك في الوصول اليها . » ومن هنا كان هذا المذهب « هادماً للفلسفة ، لأن الفلسفة ليست الا السعي لمعرفة حقائق هذا الكون » [3] .

ولكن هذه الأشياء التي يشك في وجودها اللاأدريون انما هي التي عبر عنها جورجياس – احد زعماء السوفسطائية بقوله :

« إننا نشك في وجود الاشياء ، وإن كانت موجودة فلا سبيل الى معرفتها ... » .

وواضح بعد هذا ان موضوع مسائل « اللاأدريين » يختلف عن موضوع مسائل « لست أدري » التي وردت في قصيدة « الطلاسم » والتي تراءى للشاعرة الفاضلة انه بها من مدرسة اللاأدريين !!!

. . .

١ – الجداول ص ١٦ .

٢ – « The sceptics » .

٣ – « قصة الفلسفة اليونانية » لأحمد أمين وزكي نجيب محمود ، طبعة ١٩٤٩ ، ص ٣١٩ وما بعدها .

اما هذه الشكوك والتساؤلات التي تتلجلج في صدر الشاعر وتعتمل في خاطره فقد تراءت منذ نشأته الشعرية الأولى ... فمن أنا ؟.. ومن اين جئت ؟.. والى أين أصير ؟.. كل هذه أسئلة ستبقى سرمدية وسيبقى الجواب عليها مبهماً إبهاماً سرمدياً ... وقد عبر تعبيراً كاملاً عن هذه المسائل الغامضة في ملحمته الرائعة « الطلاسم » ، التي جعلتها في القسم الاخير من المنتخبات ؛ وهي مقتبسة عن ديوانه الثالث « الجداول » ؛ إلا اننا نجد بذور تلك الأسئلة في الجزء الثاني من ديوانه :

افكر كيف جئت؟ وكيف امضي ... على رغمي ؟ فأعيا بالجواب

أتيت ولم أكن أدري مجيئي ... واذهب غير دار بالاياب

إذا كان المصير الى التلاشي ... فلم جئنا وكنا في حجاب ؟

وإن كان المصير الى خلود ... فما معنى المنية والتباب ؟

أمور لا يحيط بهن فكر ... ولو أمسى يحيط بكل باب !!!

ويلخص المشكلة مرة أخرى في ملحمته « الطلاسم » عندما يقول :

جئتُ لا أعلم من أين ، ولكني أتيتُ

ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيتُ

وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيتُ

كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟..

لستُ أدري ! . .

ويروح متسائلاً عن ذاته :

أجديدٌ ام قديم أنا في هذا الوجود؟..

ثم يتساءل عن حريته :

هل أنا حر طليقٌ ؟ . .

هل أنا قائد نفسي ؟ . .

ويتساءل عن منشئه ؛ أهو من البحر أم من النهر أم من ماذا ؟ . . وتجده في جميع مراحل « إثارة المشكلة » يجيب عليها إجابة غامضة ؛ وتتضح نزعته الى الجهل بالماضي والحاضر والآتي بلفظة لست أدري » ! . .

حتى اذا وصلنا معه الى شاطىء الحياة الثاني (الخلود) وجدناه في لمحة واحدة يؤمن به :

هات اسقني الخمر جهراً ولا تبال بما يكون

إن كان خيراً أو كان شراً إنا إلى الله راجعون

على اننا نراه في غير هذه اللمحة يُنكر الخلود انكاراً رهيباً ، ولا يقره ولا يعترف به :

لا خلودٌ تحت السماء لحي فلماذا نُراود المستحيلا ؟..

وفي موطن آخر يقول :

خلِّ الغرور بما لديك فانما دنياك زائلةٌ ونفسك فانيه..

لو أنّ حياً خالداً فوق الثرى ما مات هرون وزال معاويه

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه الى ان مجرد التفكير في الخلود معناه الوقوع في الخطأ :

غلط القائل إنا خالدون كلنا بعد الردى هيٌّ بن بيّ

وفي نفس الموشح نجده يقول :

انما القول بأنا للخلود فكرةٌ أوجدها حبّ البقاء..

ثم ...

اذا كنت لا تستطيع الخلود فمش بيننا أثراً طيبا

وبعد هذا ، نجد الفكرة تسير في ركاب شعره حتى في ديوانه الثالث الجداول ، إذ تسمعه يقول :

إن تكن للخلود ذاتك في الدنيا فماذا الأمر الذي تهواه[1]

وإذا صرتَ غير شخصك في الأخرى فهذا الفنا الذي تخشاه

في التراب الذي تدوس عليه ألف دنيا وعالم لا تراه

ثم ...

يا من تحنّ الى غد في يومه قد بعت ما تدري بما لا تعلم[2]

. . .

ونصل بعد هذا مع الشاعر الى « الموت » ... فنجده قد وفى الموضوع حقه في قصيدته التي عارض فيها قصيدة المعري في رثاء والده ...

برغمك فارقت الربوع وإننا على الرغم منا سوف نلحق بالظعن[3]

طريق مشى فيها الملايين قبلنا من الملك السامي الى عبده القن

نظن لنا الدنيا وما في رحابها وليست لنا إلا كما البحر للسفن

١ – الجداول ص ١٠٠ .

٢ – الجداول ص ١١٤ .

٣ – الخمائل ، قصيدة « أبي » ص ٦١ .

والموت ...

فأكثر اهل الارض معرفة به ... كأكثرهم جهلاً ، يرجم بالظن

فيا لك سفراً لم يزل جد غامض ... على كثرة التفصيل في الشرح والمتن

. . .

الخاتمة :

... وليس لي أن أدعي ، قبل هذا وبعد ذاك ، أنني استنفدت بهذه الدراسة ما أريد ان اقول في الشاعر وشعره ، وأغراضه ونزعاته وخاطرات فكره ؛ وانما أرى أنني ألممت بهذه الحياة الحافلة إلماما ، وطفت بتلك الرياض الغناء لماما ، وقبست من هنا زهرة ومن هناك فكرة وجعلتها في هذه المجموعة لأقدمها طاقة من الابداع الجميل في مثل هذه المحاولة ، وعذري ان جهد المقل غير قليل .

دمشق، آذار ١٩٥٤

زهير ميرزا

مقدمة [1]

الشعر عاطفة تتشوق الى القصي غير المعروف فتجعله قريباً معروفاً . وفكرة تناجي الخفي غير المدرك فتحوله الى شيء ظاهر مفهوم .

اما الشاعر فهو مخلوق غريب ذو عين ثالثة معنوية ترى في الطبيعة ما لا تراه العيون ، وأذن باطنية تسمع من همس الايام والليالي ما لا تعيه الآذان .

ينظر الشاعر الى وردة ذابلة فيرى فيها مأساة الدهور ، ويشاهد طفلا راكضاً وراء الفراشة فيرى فيه اسرار الكون ويسير في الحقل فيسمع اغـاني البلابل والشحارير وليس هناك شحارير ولا بلابل ويمشي في العاصفة فيخوض غمار معمعة هوجاء بين جيوش الارض وفيالق السماء .

يقف الشاعر امام شلال فيقول :

فيه من السيف الصقيل بريقه ... وله ضجيج الجحفل الجرار

أبداً يرش صخوره بدموعه ... أتراه يغسلها من الأوزار

ويرفع عينيه ليلاً نحو السماء فيصرخ :

أبكي وتصغي الى بكائي ... يا رب هل تعشق النجوم

ويلتقي بحبيبه فيهمس :

وددت الافاضة قبل اللقاء ... فلـما لقيتك لم انبس

---

١ - المقدمة التي كتبها جبران خليل جبران لديوان ايليا أبو ماضي الأول «تذكار الماضي» .

وبت وايــاك في معزل   كأني واياك في مجلس

يرى الشاعر ويسمع كل هــذه الأمور من خلال برقع الحياة وانت واقف بجانبه لا ترى غير مظاهرها الخارجية ولا تسمع سوى اصواتها المشوشة فتقول في ذاتك : يا له من خيالي مجنون يتمسك بخيوط العنكبوت ويصعد نحو النجوم على سلم مصنوع من اشعة القمر ويحاول ان يملأ جرته من ندى الصباح بل من السراب . أي فالشاعر يصعد الى الملأ الأعلى ولكن على سلم اقوى وأبقى من الجبال – يصعد بعزم الروح ، ويتمسك بحبال غير منظورة ولكنها أمتن من سلاسل الحديد – يتمسك بحبال الفكر ويمــلأ كأسه من عصير أرق من ندى الفجر – يملأها من خمرة الخيال ، والخيال هو الحادي الذي يسير امام مواكب الحياة نحو الحق والروح .

الشاعر يفعل كل ذلك وانت على الارض لا تستطيع المسير الا على قدميك . ولا الصعود الا على سلم من خشب . ولا السكر الا من عصير العنب ، ولا المسرة الا بالربح ، ولا الألم إلا بالخسارة .

الشاعر طائر غريب يفلت من الحقول العلوية ولكنه لا يبلغ الارض حتى يحن الى وطنه الاول فيغرد حتى في سكوته ، ويسبح في فضاء لا حد له ولا مدى مع انه في قفص .

وايليا ابو ماضي شاعر وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغــير المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي ان لم تشفها تظل ظمآنا حتى تقل الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان .

جبران خليل جبران

السماء

لا تسلني عنِ السماء فما عنديَ   إلا النعوتُ والأسماءُ
هي شيءٌ ، وبعضُ شيءٍ ، وحيناً   كلُّ شيءٍ ، وعندَ قومٍ هباءُ

★

فسماءُ الراعي كما يتمناهـــا   مروجٌ . فسيحةٌ خضراءُ
تلبسُ التبرَ مئزراً ووشاحاً   كلما أشرقتْ وغابتْ ذُكاءُ
أبداً في نضارةٍ ، لا يجفُّ العشبُ فيهـــا ، ولا يغيضُ الماءُ

★

وهي عندَ الأمِ التي اخترم الموتُ بنيها ، وتَضِلُّ عنهـــا العزاءُ
موضعٌ لا ينالهم فيهِ ضَيْمٌ   لا ، ولا يدركُ الشبابَ الفناءُ
وكذا يُولدُ الرّجاءُ من اليأسِ   إذا ماتَ في القلوبِ الرجاءُ

★

وهي عندَ الفقيرِ أرضٌ وراءَ الأفقِ ، فيها مـــا يشتهي الفقراءُ
لا يخـــافُ المثري ، ولا كلبهُ الضاري ، ولا لامرىءٍ بهِ استهزاءُ

وهي عندَ المظلومِ أرضٌ كهذي الأرضِ لكنْ قد شاعَ فيها الإخاء

يجمعُ العدلُ أهلَها في نظامٍ   مثلما يجمعُ الخيوطَ الرداء

لا ضعيفٌ مستعبَدٌ، لا قويٌّ   مستبِدٌ، بلْ كلهمْ أكفاء

كلُّ شيءٍ للكلِّ ملكٌ حلالٌ،   كلُّ شيءٍ فيها كما الكلُّ شاءوا

★

وهي عندَ الخليعِ أرضٌ تميسُ الحورُ فيها، وتدفقُ الصهباء

كلُّ ما النفسِ تشتهيهِ مباحٌ   لا صدودٌ، لا جفوةٌ، لا إباء

أكبرُ الإثمِ قولةُ المرءِ هذا الأمرُ إثمٌ، وهذهِ فحشاء

ليسَ بينَ الصلاحِ والشرِّ حدٌّ   كالذي شاءَ وضعهُ الأنبياء

وإذا لم يكنْ عفافٌ وفسقٌ   لم تكنْ حِشمةٌ ولا استحياء

. . .

كلُّ قلبٍ لهُ السماءُ الذي يهوى، وإنْ شئتَ كلُّ قلبٍ سماء

صُوَرٌ في نفوسنا كائناتٌ   ترتديها الأفعالُ والأشياء

ربَّ شيءٍ كالجوهرِ الفرْدِ فذٌّ   عدّدتهُ الأغراضُ والاهواء

كلُّ ما تقصرُ المداركُ عنهُ   كائنٌ مثلما الظنونُ تشاء

ذكرى

وَلَقد ذَكرتُكِ بَعْدَ يَأسٍ قاتِلٍ

في صَحوةٍ كَثُرَت بِها الأنواء

فَوَدِدتُ أَنِّي غَرسَةٌ أو زَهرةٌ

وَوَدِدتُ أنكِ عَاصِفٌ أو ماء



الكبرياء خلة الشيطان

لِي صاحبٌ دَخلَ الغرورُ فؤادَهُ   إنّ الغرورَ أخيّ من أعدائي
أسديتهُ نُصحي فزادَ تمادياً   في غيِّهِ وازدادَ فيهِ بلائي
أمسى يسيءُ بيَ الظنونَ ولم تسوء   لولا الغرورُ ظنونُهُ بولائي
قد كنتُ أرجو أن يُقيمَ على الولا   أبداً ، ولكنْ خابَ فيهِ رجائي
أهوى اللقاء به ويهوى ضدّهُ   فكأنّما الموتُ الزؤامُ لقائي
إني لأصحبهُ علـــى علاّته   والبدرُ من قِدَمٍ أخو الظلماء
يا صاحِ إنَّ الكبرَ خُلقٌ سيءٌ   هيهاتِ يوجدُ في سوى الجهلاء
والعجبُ داءٌ لا ينالُ دواؤهُ   حتى ينالَ الخلدَ في الدنياء
فاخفضْ جناحكَ للأنامِ تفزْ بهمْ   إنَّ التواضعَ شيمةُ الحكماء
لو أعجبَ القمرُ المنيرُ بنفسِهِ   لرأيتهُ يهوي إلى الغـــبراء

نار القرى

روحي التي بالأمسِ كانت ترتعُ   في الغابِ مثلَ الظبيةِ القمراء
تقتاتُ بالثمرِ الجنيّ فتشبعُ   ويبلُّ غلّتها رشاشُ المـــاء
نظرتْ إليكِ فأصبحتْ لا تقنعُ   بالمـــاء والأفياء في الغبراء
تصغي وتُنصتُ ، والحمامةُ تسجع   إصغاءَها لك ليسَ للورقاء
ناديتِها ، فلهـــا إليكِ تطلّعُ   هذا التطلعُ كانَ أصلَ شقائي
جنُحتي كيما أطيرَ فلم أطرْ   هيهاتِ إنكِ قد طويتِ سمائي

. . .

قد كان يسبيني الجمالُ الرائعُ   حتى لمحتُكِ فهو لا يسبيني
عصفتْ بصدري لليقينِ زوابعُ   ثلّتْ عروشَ توهمي وظنوني
فأنا على ما ضاعَ مني جازعُ   إن الذي قد ضاعَ جدُّ ثمينِ
لولاكِ ما ماتَ الخيالُ اليافعُ   أفتعجبينَ إذا كرهتُ يقيني
هذا صنيعك بي ، فما أنا صانعُ؟   قد شاء بحرُكِ أن تضلَّ سفيني
جرّدتِ هذا الطينَ من أوهامِهِ   وكبرتِ عن قارورةٍ من طينِ

. . .

كيفَ الوصولُ إليكِ، يا نارَ القرى،   أنا في الحضيضِ وأنتِ في الجوزاءِ

لي ألفُ باصرةٍ تحنُّ كما ترى   لكنَّ دونَكِ ألفُ ألفِ غطاءِ

لو مِنْ ثرًى، مزّقتها بيدِ الثرى،   لكنها سُجُفٌ من الأضواءِ

ساءلتُ قلبي إذ رأى فتحيّرا   ماذا شربتَ فدختَ؟ قالَ: دمائي

يا ليتهُ قد ظلَّ أعمى كالورى   فلقدْ نعمتُ، وكانَ في ظلماءِ

قد شوشتْ كفُّ النهارِ سكينتي   يا هذه، ردّي إليَّ مسائي

. . .

أمسيتُ حينَ لمستني بيديكِ   لي ألفُ باصرةٍ وألفُ جناحِ

ولمحتُ نارَ الوحيِ في عينيكِ   والوحيُ كانَ سُلافةَ الأرواحِ

فنشرتُ أجنحتي وحمتُ عليكِ   متوهماً أني وجدتُ صباحي

قد كانَ حتفي في الدنوِّ إليكِ   حتفُ الفراشةِ في فمِ المصباحِ

فسقطتُ مرتعشاً على قدميكِ   ألنارُ مهدي والدخانُ وشاحي

يا ليتَ نوركِ حينَ أحرقني انطوى   فعلى ضيائكِ قد لمستُ جراحي

. . .

أنتِ ...

مَهبِطَ الوَحيِ مَطلَعَ الأنبياءِ   كَيفَ أمسيتِ مَهبِطَ الأرزاءِ؟

في عُيونِ الأنامِ عَنكِ نُبوٌّ   لم يَكُنْ في العُيونِ لو لَمْ تُسائي

أنتِ كالحُرَّةِ التي انقلَبَ الدهـ   ـرُ عَلَيها فأصبحتْ في الإماءِ

أنتِ كالبُردةِ المُوشّاةِ أبلى الـ   ـطَّيُّ والنَّشرُ ما بها مِن رُواءِ

أنتِ مِثلُ الخَميلةِ الغَنّـــاءِ   عُرِّيَتْ مِنْ أوراقِها الخَضراءِ

أنتِ كاللّيثِ قَلَّمَ الدّهرُ ظُفرَيـ   ـهِ وأخنى عَلَيهِ طُولُ الثّواءِ

أنتِ كالشّاعِرِ الذي أَلِفَ الوَحـ   ـدَةَ ... في جَحفَلٍ مِنَ الغَوغاءِ

أنتِ مِثلُ الجَبّارِ يرسُفُ في الأغـ   ـلالِ في مَشهَدٍ مِنَ الأعداءِ

لو تشائينَ كنتِ أرفعَ حالاً   أوَ لستِ قديرةً أن تشائي

أنا ما زلتُ ذا رجاءٍ كثيرٍ   ولئِنْ كنتُ لا أرى ذا رَجاءِ

قَد بَكى التارِكوكِ مِنكِ قُنوطاً   فَبَكى الساكِنوكِ خَوفَ التّنائي

كَثُرَ النّائحونَ حَولكِ حتّى   خِلْتُ أني في حاجةٍ للعزاءِ

بَذَلوا دَمعَهُمْ وصُنتُ دُموعي   إنّما اليائِسونَ أهلُ البُكاءِ

لو تُفيدُ الدُّموعُ شيئاً لأحيتْ   كلَّ عافٍ مَدامِعُ الشُّعَراءِ

أنتِ في حاجةٍ إلى مِثلِ (موسى)   لستِ في حاجةٍ إلى (أرمياءِ)

. . .

مُقلةَ الشرقِ ! كم عزيزٌ علينا   أن تكوني رميَّةَ الأقذاءِ

شرّدَت أهلكِ النوائبُ في الأرْ   ضِ وكانوا كأنجمِ الجوزاءِ

وإذا المرءُ ضاقَ بالعيشِ ذرعاً   ركِبَ الموتَ في سبيلِ البقاءِ

لا يُبالي مُغرّبٌ في ذويهِ   أن يراهُ ذووه في الغرباءِ

. . .

أرضَ آبائنا عليكِ سلامٌ   وسقى اللهُ أنفسَ الآباءِ

ما هجرناكِ إذ هجرناكِ طوعاً   لا تظنّي العقوقَ في الأبناءِ

يُسأمُ الخلدُ والحياةُ نعيمٌ   أفترضى الخلودَ في البأساءِ ؟

هذهِ أرضُنا بلاقعُ ، تمشي   فوقها كلُّ عاصفٍ هوجاءِ

هذه دورُنا منازلُ للبو   مِ وكانتْ منازلَ الورقاءِ

بدّلتْها السنونُ شوكاً من الزهـ   ـرِ وبالوحشِ من بني حوّاءِ

ما طوت كارثاً يدُ الصبحِ إلّا   نشرتهُ لنا يدُ الإمساءِ

نحنُ في الأرضِ تائهونَ كأنّا   قومُ موسى في الليلةِ الليلاءِ

تترامى بنا الركائبُ في البيـ   ـداءِ طوراً ، وتارةً في الماءِ

ضعفاءٌ مُحقّرونَ كأنّا   من ظلامٍ والناسُ من لألاءِ

واغترابُ القويِّ عِزٌّ وفخرٌ   واغترابُ الضعيفِ بدءُ الفناءِ

عابَنا البيضُ أنّنا غيرُ عُجمٍ   والعِدى بالسحنةِ البيضاءِ

ويحَ قومي قد أطمعَ الدهرُ فيهم   كلَّ قومٍ حتى بني السوداءِ

فإذا فاتَنا عدوٌّ تجنّى   فأرانا الأحبابَ في الأعداءِ

أطربَتنا الأقلامُ لمّا تغنّتْ   بالمساواةِ بينَنا والإخاءِ

فسكِرنا بها فلمّا صحَونا   ما وجدنا منها سوى أسماءِ !!

. . .

نحنُ في دولةٍ تلاشت قُواها   كالنُضارِ المدفونِ في الغبراءِ

أو كمثلِ الجنينِ ماتت به الحا   مِلُ حياً يجولُ في الأحشاءِ

عجباً كيف أصبحَ الأصلُ فرعاً   والضحى كيف حلَّ في الظلماءِ

ما كفتنا مظالمُ التركِ حتى   زحفوا كالجرادِ أو كالوباءِ

طُردوا من ربوعِهم فأرادوا   طردَنا من ربوعِنا الحسناءِ

ما لنا ، والخطوبُ تأخذُ منّا   نتلهّى كأننا في رخاءِ

ضيمَ أحرارُنا وريعَ حِمانا   وسكتنا ، والصمتُ للجبناءِ

نهضةً تكشفُ المذلّةَ عنّا   فلقد طالَ نومُنا في الشقاءِ

نهضةً تلفتُ العيونَ إلينا   إنّ خوفَ البلاءِ شرُّ بلاءِ

نهضةً يحملُ الأثيرُ صداها   للبرايا في أوّلِ الأنباءِ

نهضةً تَبْلُغُ النفوسُ مُناها   فهي مُشتاقةٌ إلى الهَيجاءِ
إنّ ذا المُلكَ هيكلٌ نحنُ فيه الـ   قَلْبُ والقلبُ سَيّدُ الأعضاء
زَعَمَ الخائِنونَ أنّا بمـا نَبْغِـ   ـيهِ نبغي الوُصولَ للعَنقاء
سَوفَ يَدرونَ أنما العُربُ قومٌ   لا يُبَالونَ غيرَ رَبِّ السّماء
يَومَ لا تُنبتُ السُّهولُ سِوى النّا   سِ وغَيرَ الأسِنّةِ السّمراء
يومَ تَمشي على جِبالٍ من الأشْـ   ـلاءِ تَمشي في أبحُرٍ من دِماء
يومَ يستشعِرُ المراؤون مِنّا   إنّمـا الخاسِرونَ أهلُ الرِّياء



الفقير

مْ ألَمّ به مع الظلمـاءِ   فنأى بمقلته عن الاغفاء
نفس أقام الحزن بين ضلوعه   والحزن نارٌ غير ذات ضياء
يرعى نجوم الليل ليس به هوى   ويخاله كلفاً بهنّ الرائي
في قلبه نار (الخليل) وانما   في وجنتيه أدمع (الخنساء)
قد عضه اليأس الشديد بنابه   في نفسه والجوع في الاحشاء
يبكي بكاء الطفل فارق أمه   ما حيلة المحزون غير بكاء!
فأقام حلس الدار وهو كأنه   ـ لخلو تلك الدار ـ في بيداء
حيران لا يدري أيقتل نفسه   عمداً فيخلص من أذى الدنياء
أم يستمر على الغضاضة والقذى   والعيش لا يحلو مع الضراء
طرد الكرى وأقام يشكو ليله   يا ليل طلت وطال فيك عنائي
يا ليل قد أغريت جسمي بالضنا   حتى ليـؤلم فقده أعضائي
ورميتني يا ليل بالهم الذي   يفري الحشا، والهم أعسر داء
يا ليل مالك لا ترق لحالتي   أتراك والأيام من أعدائي؟
يا ليل حسبي ما لقيت من الشقا   رحماك لستُ بصخرة صماء

بنْ يا ظلام عن العيون فربما … طلع الصباح وكان فيه عزائي
و! رحمتا للبائسين فـانهم … موتى وتحسبهم من الاحياء
إني وجدت حظوظهم مسودّة … فكأنما قدّت من الظلماء
ابداً يسر بنو الزمان وما لهم … حظ كغيرهم من السرّاء
ما في أكفهم من الدنيا سوى … ان يُكثروا الأحلام بالنعماء
تدنو بهم آمالهم نحو الهنـا … هيهات يدنو بالخيال النائي
ابطر الأنام من السرور وعندهم … ان السرور مرادف العنقاء
إني لاحزن ان تكون نفوسهم … غرض الخطوب وعرضة الارزاء
أنا ما وقفت لكي اشبب بالطلا … مـالي وللتشبيب بالصهباء ؟
لا تسألوني المدح أو وصف الدمى … إني نبذت سفاسف الشعراء
باعوا لأجل المال ماء حيائهم … مدحاً وبتُّ أصون ماء حيائي
لم يفهموا ما الشعر ، إلا انه … قد بات واسطة إلى الاثراء
فلذاك ما لاقيت غير مشبب … بالغانيات وطالب لعطـاء
ضاقت به الدنيا الرحيبة فانثنى … بالشعر يستجدي بني حواء
شقي القريض بهم وما سعدوا به … لولاهم اضحى من السعداء
نادوا علينا بالمحبـة والهوى … وصدورهم طبعت على البغضاء

ألفوا الرياء فصار من عاداتهم … لعن المهيمن شخص كل مرائي !
إن يغضبوا مما أقول فطالما … كره الأديب جماعة الغوغاء
أو ينكروا أدبي فلا تتعجبوا … فالرمدُ يؤلمهم طلوع ذكاء
أو كلما نصر الحقيقةَ فاضلٌ … قامت عليه قيـامة السفهاء
أنا ما وقفت اليوم فيكم موقفي … إلا لأندب حـالة التعساء
عليّ احرّك بالقريض قلوبكم … ان القلوب مواطن الاهواء
لهفي على المحتاج بين ربوعكم … يُمسي ويُصبح وهو قيد شقاء
امسى سواء ليـله وصباحه … شتان بين الصبح والامساء
قطع القنوط عليه خيط رجائه … والمرء لا يحيا بغير رجـاء
لهفي ! ولو أجدى التعيس تلهفي … لسفكت دمعي عنده ودمائي
قل للغني المستعز بمـاله … مهلاً لقد اسرفت في الخيلاء
جُبل الفقير أخوك من طين ومن … ماء ، ومن طين جبلت وماء
فمن القساوة ان تكون منعماً … ويكون رهن مصائب وبلاء
وتظل ترفل بالحرير أمـامه … في حين قد امسى بغير كساء
اتضن بالدينار في اسعافـه … وتجود بالآلاف في الفحشاء
انصر أخاك فان فعلت كفيته … ذلَّ السؤال ومنة البخـلاء

أذوي اليسار وما اليسار بنافع   إن لم يكن أهلوه أهل سخاء
كم ذا الجحود ومالكم رهن البلا   وبم الغرور وكلكم ملفنـاء ؟
ان الضعيف بحاجة لنضاركم   لا تقعدوا عن نصرة الضعفاءِ
انا لا اذكّر منكم أهل الندى   ليس الصحيح بحـاجة لدواءِ
ان كانت الفقراء لا تجزيكم   فالله يجزيكم عن الفقراءِ

•

تلك السنون

في حفلة اليوبيل الفضي لجريدة « السمير »

تلكَ السنونُ الغارباتُ ورائي   يبغزٌ كتبتُ حروفَهُ بدمائي
مـا عشتُها لأعدّها بل عشتُها   لتبينَ في سيائهـا سيمائي
بيثانِ لو أني قنعتُ بعدّهـا   عمري وعمرُ الصخرةِ الصماءِ
ولبذِّني يومَ التفاخرِ شاطئهُ   مـا فيهِ غيرُ رمالهِ الخرساءِ
لاحتْ ليَ العليـاءُ في آفاقِها   فأردتُها دَرَباً إلى العلياءِ
ومحبةً للخيرِ تسري في دمي   ورعايةً للضعفِ والضعفاءِ
وعبادةً للحقِ أينَ وجدتُهُ   والحسنِ في الأحياءِ والأشياءِ
لتدورَ بعدي قصةٌ عن شاعرٍ   رقصتْ به الدنيا جناحَ ضياءِ
نَثَرَ الطيوبَ على دروبِ حياتِهِ   وسَرَى هوًى في الطيبِ والأنداءِ
وأطلَّ من قلبِ البخيلِ سماحةً   وشجاعةً في السِّلْمِ والهيجاءِ
ومشى إلى المظلومِ بارقُ رحمةٍ   وهوى على الظلامِ سَوْطَ بلاءِ
فتعزُّ دنيـا قد طوتْ آبائي   وتهشُّ دنيا أطلعتْ أبنائي

. . .

تلك السنونُ بيؤسِها ونعيمِها مالتْ بعودي وانطوتْ بروائي
أين الشبابُ ألفتُ أحلامي بهِ ليسَ الشبابُ الآن لي برداءِ
نفسي تحسُّ كأنما أثقالَها قد خُيرتْ فتخيرتْ أعضائي
كَمْ من رؤى طلعتْ على جَنَباتِها ركباً من الأضواءِ والأشذاءِ
قلَّبْتُ فيها بَعْدَ لأيٍ ناظري فتعثرتْ عينـــايَ بالأشلاءِ
يا للضحايا، لا يرفُّ لموتِهـــا جفنٌ، ولا تُحصى مع الشهداءِ
ودعتُ لذاتِ الخيالِ وعفتُها ورضيتُ أنْ أشقى مع الحكماءِ
فعرفتُ مثلهمُ بـــأني موجدٌ بؤسي، وأني خالقُ نعمائي

. . .

إني أراني بعد مــــا كابدتُهُ كالفلكِ خـــارجةً من الأنواءِ
وكسائحٍ بلغَ المدينةَ بعدما ضلَّ الطريقَ وتاهَ في البيداءِ
شكراً لأصحابي فلولا حبهمْ لم أقتربْ من عالمِ اللألاءِ
بهمِ اقتحمتُ العاصفاتِ بمركبي وبهمْ عقدتُ على النجومِ لوائي

. . .

شكراً لأعدائي فلولا عيثهم لم أدرِ أنهمو من الغوغـــاءِ
نَهشَ الأسى لما ضحكتْ قلوبَهمْ عرسُ المحبةِ مـــأتمُ البغضاءِ
ذنبي إلى الحسادِ أني فتهمْ وتركتهمْ يتعثرونَ ورائي

وخطيئتي الكبرى إليهم أنهم قَعَدوا ولم أقعدْ على الغبراءِ
عفوُ المروءةِ والرجولةِ أنني أخطأتُ حين حسبتهمْ نُظرائي

. . .

شكراً لكلِّ فتىً مزجتُ بروحهِ روحي فطابَ ولاؤهُ وولائي
من كانَ يحلُمُ بالسماءِ فإنني في قلبِ إنسانٍ وجدتُ سمائي
ليسَ الجمالُ هو الجمالُ بذاتهِ الحسنُ يوجدُ حينَ يوجدُ رآءِ
ما الكونُ؟ ما في الكونِ لولا آدمٌ إلا هباءٌ عــالقٌ بهباءِ
وأبو البريةِ مـــا أبانَ وجودَهُ وأتمَّ غايتَهُ سوى حـــواءِ
إني سكبتُ الخمرَ حين سكبتُها للناسِ، لا للأنجمِ الزهراءِ
لا تشربُ الخمرَ النجومُ وإن تكنْ معصورةً من أنفسِ الشعراءِ

. . .

تلكَ السنونُ، عقيمُها كولودِها حلوٌ لديَّ، كذا يشاءُ وفائي
فالليلةُ العسراءُ من عمري وعمرُ الدهرِ مثلَ الليلةِ السمحاءِ
يا مَنْ يقولُ (ظلمتَ نفسكَ فاتئد) دعني، فلستَ بحاملٍ أعبائي
إنَّ الحياةَ الروحِ بعضُ عطائِها وأنا ثمارُ الروحِ كلُّ عطائي

ما العمرُ؟ إنْ هُوَ كالإناءِ وإنني   بالطيِّبِ الغـالي ملأتُ إنائي

فـإذا بقيتُ، فللجمالِ بقائي   وإذا فنيتُ، ففي الجمالِ فَنائي

. . .

للهِ مـا أحلى وأسنى ليلتي   هيَ في كتابِ العمرِ كالطغراءِ

يا صحبُ لن أنسى جميلَ صنيعِكمْ   حتى تفارقَ هيكلي حَوبائي [1]

وتقولُ عيني «قد فقدتُ ضيائي»   ويقولُ قلبي «قد فقدتُ رجائي»

•

(١) النفس.

رؤيـا

رؤيا منامٍ... وربَّ حلمٍ في الكرى   فيهِ تلوحُ حقائقُ الأشياءِ

إني حلمتُ كأنمـا أنا سائرٌ   في روضةٍ خلّابةٍ غنّـاءِ

ألنورُ مفروشٌ على طُرُقاتهـا   والعطرُ في النسماتِ والأفياءِ

والعشبُ فيها سندسٌ متموِّجٌ   والجـوُّ أضواءٌ على أضواءِ

وإذا بصوتٍ كالهريرِ يطنُّ في   أذنيَّ، وأنيابٌ تصرُّ ورائي

فأدرتُ طرفي باحثـاً متعجباً   مما سمعتُ، ولستُ في بيداءِ

فـإذا ورائي في الحديقةِ نابحٌ   ضاري المحاجرِ ضامرُ الأحشاءِ

كادتْ تطلُّ عروقُهُ من جلدِهِ   وتطلُّ معهـا شهوةٌ لدمائي

أشفقتُ يعلقُ نابُـهُ بردائي   فرفستُهُ غضباً فطـارَ حذائي

فَطَوى نواجذَهُ عليهِ كأنما   عضّتْ نواجذُهُ على العنقاءِ

ومضى بهِ لرفـاقِهِ فتهلّلوا   وتقاسموهُ، فكانَ خيرَ عشاءِ

لا يعجبنْ أحدٌ رآني حافياً   أبلتْ نعالي ألسنُ السفهاءِ...

رؤيا ثانية

«وحلمتُ ثانيةً، وكانَ الكونُ لم ... تبرحْ عليهِ كلاكلُ الظلماءِ
أني رأيتُ جرادةً مطروحةً ... في سَبْخَةٍ منهوكةِ الأعضاءِ
ترنو إلى الأفقِ البعيدِ بمقلةٍ ... كلمى، وتشتمُ أنجمَ الجوزاءِ
فسألتها ماذا عراكِ فلمْ تُجبْ، ... فسألتُ عنها زمرةَ الرفقاءِ
قـالوا: رفيقتنا شهيدة هزنها ... بنصائحِ العُقلاءِ والحكماءِ
كانتْ إذا جاعتْ فحبةُ خردلٍ ... تكفي، وإنْ عطشتْ فنقطةُ ماءِ
سمعتْ بنهرٍ في السماءِ وجنةٍ ... ليستْ لتصويحٍ ولا لفناءِ
ألعطرُ في أثمارها، والشهدُ في ... أنهارها، والسحرُ في الأنداءِ
فاستنكفتْ أنْ تستمرَّ حياتُها ... في الأرضِ جائمةً على الأقذاءِ
فمضتْ تحلّقُ في الفضاءِ ولم تزلْ ... حتى وهتْ فهوتْ إلى الغبراءِ
رجعتْ إلى الدنيا التي خُلِقَتْ لها ... لم تُخلقِ الحشراتُ للأجواءِ
هذي حكايتُها وفيهـا عبرةٌ ... للطائشينَ كهذهِ الحمقـاءِ

الطيران

لو رأى «آدمٌ» فتاهُ لزالَ الحِـقدُ مِن قلبِهِ على حوّاءِ
صيّرَ الأرضَ جنةً دونَها الجنـةُ في الحُسنِ والبَها والرُّواءِ
مَا أظنُّ النعيمَ فيهِ الذي في الـأرضِ مِنْ بهجةٍ ومن لألاءِ
كلُّ مَا في الوجودِ للمرءِ عبدٌ ... وهْوَ عبدُ الشهواتِ والأهواءِ
كائنٌ كلُّ كائنٍ حـار فيهِ ... فهوَ حُلوٌ مُرٌّ ودانٍ نائِ
وهْوَ طوراً يكونُ نصفَ إلهٍ ... وهْوَ طوراً أدنى مِنَ العجماءِ
عجباً كيفَ طاعهُ الطّينُ والما ... ءُ وما كانَ غيرَ طينٍ وماءِ؟
سادَ في الكونِ مثلَمَا سادَ فيهِ ... خالقُ الكونِ مُبدعُ الأشياءِ
فهوَ في الماءِ سابحٌ وعلى الغـبراءِ ماشٍ وطائرٌ في الفضاءِ
اتّخذَ الجوَّ ملعباً ثمّ أمسى ... راكِضاً في الهواءِ ركضَ الهواءِ
فهوَ فوقَ السحابِ يحكيهِ في مسـراهُ لكنّهُ أخو خُيلاءِ
وهْوَ بينَ الطيورِ تحسبهُ العنقـاءَ لولا استحالةُ العنقاءِ

أبصرَتْهُ فأكبَرت أنْ ترى في الجـــوّ   صَيَّادَها على الغَــبراءِ

فاستوى في قُلوبِها الذُّعرُ حتى   كادَ يَحكي البَلاءَ خوفُ البَلاءِ

وتَنادَتْ تبغي النَّجاةَ فِراراً   أينَ أينَ المفرُّ مِن ذا القضاءِ

وَيحَ هذي الطُّيورِ تجنى على المَوْ   تى وتَرجو سلماً مِن الأحياءِ

إهبِطي أو فحَلِّقي أو فَسيري   إنَّما المُنتهى إلى الأرزاءِ !

. . .

وَهوَ بينَ النُّجومِ يسترقُ السَّمـــعَ   ولا يتَّقي رُجومَ السَّماءِ

مَشهدٌ روَّعَ الدَّراري فباتَتْ   حائراتٍ في القُبَّةِ الزَّرقاءِ

نافِراتٍ كأنَّهـــا ظَبياتٌ   رأتِ القانصينَ في البيداءِ

سائلاتٍ إذا رَسولُ سَلامٍ   مِن بني الأرضِ أم نَذيرُ فَناءِ ؟

هالَها أنْ ترى مِن الإنسِ قوماً   يتهادَوْنَ مِثلَها في الفضاءِ

فرأيتَ الجَوزاءَ تشكو الثُّريّا   والثُّريّا تشكو إلى الجوزاءِ

لا تُراعي يا شُهبُ مِنَّا فإنَّا   ما حملنا إليكِ غيرَ الوَلاءِ

قدْ كرِهْنا المقامَ في الأرضِ لمّا   قيلَ إنَّ السَّما مَقرُّ الهَناءِ

إنَّما شوقُنا إليكِ الذي أسْــرى   بِنا لا الهُيامُ في الإسراءِ

فَصِلينا نَزْدَدْ غَراماً ووَجداً   غيرُ مُستحسَنٍ كثيرُ الإباءِ

نحنُ يا شُهبُ في حِماكِ ضُيوفٌ   وجَميلٌ رعَــايَةُ الغُرَباءِ

أكرِمي ذلِكَ المُحلِّقَ فوقَ السُّحبِ   يُثني عليكِ خيرَ ثَنــاءِ

وأنيري طَريقَهُ إن دجا اللَّيــلُ   ودَبَّتْ عَقارِبُ الظَّلْماءِ

صاغَكِ اللهُ شُعلةً مِنْ ضِياءٍ   وبَرا المرءَ شُعلةً مِن ذَكـاءِ

اتَّخِذيهِ أخاً يَكنْ لكِ عَوْناً   كلُّ نفسٍ محتاجةٌ للإخاءِ

لا تُفاخِرْ بالواخِداتِ ولا بالخَيــلِ   مِنْ أدهَمٍ ومِنْ شَهباءِ

هانَ عَصرُ النِّياقِ والرّاكبيها   عندَ عَصرِ البُخارِ والكَهرباءِ !

أخو الورقاء

رسالة الى الشاعر القروي ألقيت في الحفلة الوداعية التي أقيمت في ولاية تكساس وقد تعذر على الشاعر حضورها .

لله من عَبَثِ القضاء وسخرِهِ بالناسِ والحالاتِ والأشياءِ

كم درةٍ في التاجِ ألفُ مثلها في القاعِ لم تخرجْ من الظلماءِ

ولكمْ تعثّرَ بالغبارِ سميذعٌ وانداحتِ الأطوادُ للجبناءِ

ولكم جَنَى علمٌ على أربابِهِ وجنى الهناءَ جماعةُ الجهلاءِ

أرأيتَ أعجبَ حالةٍ من حالنا أزفَ الرحيلُ ولم نفزْ بلقاءِ !

عاشتْ شهوراً بالرجاءِ قلوبُنا وبلحظةٍ أمستْ بغيرِ رجاءِ

ماتتْ أمانينا الحسانُ أجنّةً لم تكتحلْ أجفانُها بضياءِ

فكأنها برقٌ تألّقَ وانطوى في الليلِ لم تلمحهُ مقلةُ راءِ

وكأننا كنا نحلّقُ في الفضا صُعُداً لنلمسَ منكبَ الجوزاءِ

حتى إذا حانَ الوصولُ... رَمَتْ بنا

نكباءُ عاتيةٌ إلى الغبراءِ !

وكأن «تكسسَ» وهي في هذا الحمى

صُقْعٌ «كسانبولِ» قصيٌّ نائي

طوبى لها ، إنْ كانَ يعلمُ أهلُها

أنَّ النزيلَ بها أخو الورقاءِ

كانتْ مسارحَ «للرعاةِ» فأصبحتْ

لما أتاها كعبةَ الشعراءِ

هو بلبلٌ عَبَقُ النبوّةِ في أغا نيهِ ، وفيها نكهةُ الصهباءِ

وجلالُ لبنانٍ ، وقد غمرَ المسا هضباتِهِ ، وانسالَ في الأوداءِ

غنّى ، ففي النسماتِ ، والأوراقِ ،

والغدرانِ ، أعراسٌ بلا ضوضاءِ

وبكى ، فشاعَ الحزنُ في الأزهارِ ،

والأظلالِ ، والألوانِ ، والأضواءِ

هو نفحةٌ قدسيةٌ هبطتْ إلى هذا الثرى من عالمِ الآلاءِ

لو عادَ للدنيا البراقُ وحزتُهُ ما كانَ إلا نحوهُ إسرائي

أشكو البعادَ وليسَ لي أنْ أشتكي فسماؤهُ موصولةٌ بسمائي

ما حالَ بين نفوسنا ، مـــا حالَ بين جسومنا من أجبُلٍ وفضاءِ

فلكَمْ نَظَرْتُ إلى الرُّبى فلمحتهُ   في الأُقحوانِ الخيِّرِ المعطاءِ

وسمعتُ ساقيةً تئِنُّ فخلتني   لبكـائِهِ أوطانُهُ إصغائي

وإذا تلوحُ لي الجبالُ ذكرتهُ   فالشاعرُ القرويُّ طودُ إباءِ

مَنْ كانَ يحلُمُ بالغديرِ فـإنهُ   يبدو لهُ في كلِّ قطرةِ ماءِ

إنْ كنتُ لم أرَهُ فقدْ شاهدتُهُ   بعيونِ أصحابي ، وذاكَ عزائي

. . . . .

أفتى القوافي كالشَّواظِ على العدى

وعلى قلوبِ الصَّحْبِ كالأنداءِ

سارتْ إليـكَ تحيتي ولو انني

خُيِّرتُ ، كنتُ تحيتي ودعـائي



الحجر الصغير

سمعَ الليلُ ذو النجومِ أنيناً   وهو يغشى المدينةَ البيضاءَ

فانحنى فوقَها كَمُسْتَرِقِ الهمْ   سِ يطيلُ السكوتَ والإصغاءَ

فرأى أهلَها نياماً كأهلِ ال   كهفِ لا جلبةً ولا ضوضاءَ

ورأى السدَّ خلفَها محكمَ البنْ   يانِ والمـــاءُ يشبهُ الصحراءَ

كانَ ذاكَ الأنينُ من حَجَرٍ في السـ   دِّ يشكو المقادرَ العمياءَ

أيَّ شأنٍ يقولُ في الكونِ شأني   لستُ شيئاً فيهِ ولستُ هباءَ

لا رخامٌ أنا فأنحتُ تمثا   لاً ، ولا صخرةٌ تكونُ بناءَ

لستُ أرضاً فأرشفُ المـــاءَ ،   أو ماءً فأروي الحدائقَ الغنَّاءَ

لستُ دراً تنافسُ الغادةُ الحـ   سناءُ فيهِ المليحةَ الحسناءَ

لا أنا دمعةٌ ولا أنا عينٌ ،   لستُ خالاً أو وجنةً حمراءَ

حَجَرٌ أغـــبرٌ أنا وحقيرٌ   لا جمالاً ، لا حكمةً ، لا مضاءَ

فلأغادرْ هذا الوجودَ وأمضي   بسلامٍ ، إني كرهتُ البقـــاءَ

وهَوى من مكانِهِ ، وهو يشكو   الأرضَ والشهبَ والدجى والسماءَ

فتحَ الفجرُ جفنَهُ . . . فـــإذا الطوفانُ يغشى « المدينةَ البيضاءَ »

عطش الأرواح

زحزحتْ عن صدرِهَا الغيمَ السماء   وأطلَّ النورُ من كَهْفِ الشتاء
فالروابي حِلَلٌ من سُندسٍ   والسواقي ثرثراتٌ وغناء
رَجَعَ الصيفُ ابتساماً وشذًى   فمتى يرجعُ للدنيا الصفاء ؟
فأرى الفردوسَ في كلِّ حمىً   وأرى الناسَ جميعاً سعداء
زالتِ الحربُ وولتْ إنمـا   ليسَ للذعرِ من الحربِ انقضاء
إنْ صحونا فأحاديثُ الوغى   في الحمى الآهلِ والأرضِ العراء
وإذا نمنا ترامتْ في الكرى   صُوَرُ الهولِ وأشباحُ الفناء
فهيَ في الأوراقِ حبرٌ هائجٌ   وعلى «الراديو» فحيحُ الكهرباء
نتقي في يومنا شرَّ غدٍ   وإذا الصبحُ انطوى خفنا المساء
عجباً ! والحربُ بابٌ للردى   وطريقٌ لدمارٍ وعَفَـاء
كيفَ يهواها بنو الناسِ فهلْ   كرهوا في هذهِ الدنيا البقاء ؟
إنْ يَكُنْ علمُ الورى يشقيهمُ   يا إلهي ردَّ للناسِ الغبـاء

وليجيء طوفانُ نوحٍ قبلمـا   تغرقُ الأرضُ بطوفانِ الدماء
واعصمِ الأسرارَ واحجبْ كنهَهَا   عَنْ ذوي العلمِ وأربابِ الذكاء
فلقدْ أكثرتَ أسبابَ الأذى   عندما أكثرتَ فينا العلمـاء
كم وجدنا آفةً مهلكةً   كلما زحزحتَ عن سرٍ غطاء ؟
قد ترقى الخَلْقُ لكنْ لم تزلْ   شرعةُ الغابةِ شرعَ الأقوياء
حُرِّمَ القتلُ ، ولكنْ عندهمْ   أهونُ الأشياءِ قتلُ الضعفاء
لا تقلْ لي هكذا الله قضى   أنتَ لا تعرفُ أسرارَ القضاء
جاءني بالماءِ أروي ظمأي   صاحبٌ لي مِنْ صحابي الأوفياء
يا صديقي جنِّبِ المـاءَ فمي   عَطَشُ الأرواحِ لا يُروى بماء
أنا لا أشتاقُ كاساتِ الطِّلا   لا ، ولا أطلبُ مجداً أو ثراء
إنما شوقي إلى دنيا رضىً   وإلى عصرِ سَلامٍ وإخـاء
لا تعدني بالسما ، يا صاحبي   ألسما عنديَ قربَ الأصدقاء
وأراني الآنَ في أكنافهمْ   فأنا الآنَ كأني في السماء !

ابسمي

إبسمي كالوردِ في فجر الصباءْ ... وابسمي كالنجم إنْ جُنّ المساءْ

وإذا مـا كفّنَ الثلجُ الثرى ... وإذا مـا ستّرَ الغيمُ السماءْ

وتعرّى الروضُ من أزهارهِ ... وتوارى النورُ في كهفِ الشتاءْ

فاحلمي بالصّيفِ ثم ابتسمي ... تخلقي حولكِ زَهراً وشذاءْ

وإذا سرّ نفوساً أنها ... تحسنُ الأخذَ فسُرّي بالعطاءْ

وإذا أعياكِ أنْ تعطي الغنى ... فافرحي أنكِ تُعطينَ الرجاءْ



الشاعر في السماء

رآنيَ اللهُ ذاتَ يـومٍ ... في الأرضِ أبكي من الشقاءْ

فَرقّ ، واللهُ ذو حنانٍ ... على ذوي الضرّ والعنـاءْ

وقالَ : ليسَ الترابُ داراً ... للشعرِ ، فارجعْ إلى السماءْ !

وشادَ فـوقَ السّماكِ بيتي ... ومدّ ملكي على الفضاءْ

فالتفتِ الشّهبُ حولَ عرشي ... وسارَ في طاعتي الضيـاءْ

وصرتُ لا ينطوي صبـاحٌ ... إلّا بـأمري ولا مساءْ

ولا تسوقُ الغيومَ ريحٌ ... إلّا ولي فوقهـا لواءْ

فالأمرُ بين النجومِ أمري ... لي الحكمُ فيها ولي القضاءْ

. . .

لكنّني لم أزلْ حزينـاً ... مكتئبَ الروحِ في العلاءْ

فاستغربَ اللهُ كيفَ أشقى ... في عالمِ الوحي والسّناءْ

وقالَ : مـا زال آدمياً ... يصبو إلى الغِيدِ والطّلاءْ

ومسَّ روحي واستلَّ منها   شوقي إلى الخمرِ والنساءْ
وظنَّ أني انتهى بلائي   لمْ يَزِدْني سوى بــلاءْ
واشتدَّ نَوحي وصارَ جَهراً   وكانَ من قَبلُ في الخفاءْ
وصـارَ دمعي سيولَ نارٍ   وكانَ قبلاً سيولَ مــاءْ

. . .

يا أيُّهـا الشاعرُ المعنَّى   حيَّرني داؤكَ العيــاءْ
هل تشتهي أن تكونَ طيراً؟   فقلتُ: كلّا، ولا غناءْ!
هل تشتهي أن تكونَ نجماً؟   أجبتُ: كلّا، ولا بَهاءْ!
هل تبتغي المالَ؟ قلتُ: كلّا   مـا كانَ من مطلبي الثراءْ
ولا قصوراً، ولا رياضاً   ولا جنوداً ولا إمـــاءْ
وليسَ ما بي، يا ربُّ، داءٌ   ولا احتياجي إلى دواءْ
ولا حنيني إلى الغواني   ولا اشتياقي إلى الظبــاءْ
ولا أريدُ الذي لِغيري   ذا حكمةٍ كانَ أمْ مَضاءْ
لكنَّ أمنيَّةً بنفسي   يسترُهـا الخوفُ والحياءْ!
فقـالَ: يا شاعراً عجيباً   قُلْ لي إذنْ ما الذي تَشاءْ؟
فقلتُ: يا ربُّ، فصلَ صيفٍ   في أرضِ لبنانَ أو شتاءْ

فإنّني ههنــا غريبٌ   وليسَ في غُربةٍ هناءْ!
فاستضحكَ اللهُ من كلامي   وقالَ: هذا هُوَ الغَباءْ
لبنانُ أرضٌ ككلِّ أرضٍ   وناسُهُ والوَرَى سواءْ
وفيه بُؤسى وفيه نُعمى   وأردياءُ وأتقيــاءْ
فأيُّ شيءٍ تشتاقُ فيه؟   فقلتُ: ما سرَّني وَساءْ
تحنُّ نفسي إلى السواقي،   إلى الأقاحي، الى الشَّذاءْ
الى الروابي تَعرى وتكسى،   إلى العصافيرِ والغنــاءْ
الى العناقيدِ، والدوالي،   والماءِ، والنورِ، والهواءْ!
فأشرفَ اللهُ من عُــلاهُ   يشهدُ «لبنانَ» في المساءْ
فقالَ: ما أنتَ ذو جنونٍ   وإنّما أنتَ ذو وفـــاءْ
فإنَّ لبنانَ ليسَ طَوْداً،   ولا بلاداً، لكنْ سماءْ!

مصرع حبيبين

في ذلكَ الرَّوضِ الأغنِّ بدَى فتًى   قد يبلغُ العشرينَ عاماً ذو نُهى

كالبدرِ إلا أنــهُ متكتِّمٌ   والغصنِ إلا أنهُ غُصنٌ ذَوى

كَتَبَ الضَّنى في وجهِهِ هذا الذي   كادَ الغرامُ بهِ يَؤولُ إلى الفَنا

دَنِفٌ تُرَوِّعهُ الغصونُ اذا انثَنَتْ   طرَباً ، ويُقلقهُ النسيمُ اذا جَرى

حيرانُ يُقعِدهُ الهوى ويُقيمهُ   فكأنَّهُ عَلَمٌ يُداعِبهُ الهوَا

فإذا رَنا للأفقِ ظنَّ نجومَهُ   عِقدُ التي مَنْ رامَها رامَ السَّما

وتوهَّمَ القمرَ المحلِّقَ وَجهَ مَنْ   ضَنَّتْ وجادتْ باللقاءِ وبالنَّوى

حَجَبَ الغمامُ البدرَ عندَ مَسيرِهِ   فكأنَّهُ (أسماءُ) تَسري في الدُّجى

حسناءُ قد عَشِقَ المُحِبُّ عفافَها   وتعشَّقتْ آدابَــهُ فَهُما سَوَا

كالغصنِ قامتُها إذا الغُصنُ انثنى   وجبينُها يَحكي الصباحَ إذا انجلَى

وقعتْ غدائِرُها على أقدامِها   فكأنها قد عضَّها نابُ الهوَى

حَوِدٌ إذا نطقتْ حَسِبتَ حديثَها   دُرّاً ، ولكنْ ليسَ مما يُشترَى

وقفتْ تُحيطُ بها الزهورُ كأنها   قمرٌ يُحيطُ بهِ الكواكبُ في الفضا

ومشَتْ تَحِفُّ بها الغصونُ كأنها   مَلِكٌ تحفُّ بهِ الجنودُ إذا مَشى

للهِ زورتُها وقد قَنِطَ الفتى   فكأنها روحٌ جرَى فيمنْ ثَوَى

هيهاتِ ما ظَفَرُ المؤمِّلِ بالغِنَى   بألذَّ من ظفرِ المتيَّمِ باللِّقــا

فَدَنَا يطارِحُها تحيةَ عاشقٍ   ويقولُ أهلاً بالحبيبِ الذي أتى

بينا تُصافِحُ من يُصافِحُها إذا   بدموعِها سَحَّتْ فَصافحتِ الثرَى

«ما للعيونِ تحدَّرَتْ عَبَراتُها   وعلامَ هذا الحُزنُ ياذاتَ البَها»؟

قالتْ حبيبي لو تَرى ما قد جَرى   في رَبعِنا شاركْتني فيما تَرى

جارَ القضاءُ عليَّ في أحكامِهِ   ما حيلةُ الإنسانِ إنْ جارَ القضا؟

فابكِ معي ، فلرُبَّما نَفعَ البُكا   إنَّ الليالي لا تدومُ على الصفَا

قالَ الفتى ، والدمعُ مُنتثِرٌ على   خدَّيهِ ، يا أسماءُ قولي ما جَرى

فتلفَّتتْ في الرَّوضِ خيفةَ سامعٍ   فكأنها الظبْيُ الغريرُ إذا رَنا

وترددتْ بكلامِها فكأنما   تَبغي ولا تبغي التفوُّهَ بالنَّبا

قالتْ ودَمعُ الحُزنِ يَخنُقُ صوتَها   وَشَتِ الحواسِدُ عندَ من نخشى بِنا

وغداً يعودُ الشَّملُ مُنفصمَ العُرَى   هذا هو الخبرُ اليقينُ بلا خَفا

قد أنبأتهُ بالفراقِ وما درَتْ   أنَّ الفراقَ حِمامُ مَنْ عرفَ الهوى

فكأنما سهمٌ أصابَ فؤادَهُ   وكأنهُ لما ارتمى طودٌ هوى

أما الفتاةُ فراعَها ما صارَ في   محبوبِها وكأنها ندِمتْ على...

جعلتْ تُناديهِ بصوتٍ مُحزِنٍ   فَيُجيبها كندائِها رَجْعُ الصدى

حتى إذا قَنِطَتْ دَنَتْ منهُ كما   يدنو أخو الداءِ العُضالِ منَ الدوا

وَحَنَتْ فحرَّكتِ الفتى وإذا بهِ   جِسْمٌ ولكنْ لا حياةَ بهِ ولا...

قد فارقَ الدُّنيا ففارقَها الرَّجا   وهوتْ تُعانِقُهُ ففارقتِ الورى

قُرانِ ضمَّهما الترابُ وما عرفـ   ـتُ سِواهُما قرينِ ضمَّهما الثرى

السجينة

لعَمْرُكَ ما حزني لمـالٍ فقدتهُ   ولا خانَ عهدي في الحياةِ حبيبُ

ولكنني أبكي وأندبُ زهرةً   جناها ولوعٌ بالزهورِ لعوبُ

رآها يحلُّ الفجرُ عقْدَ جفونِها   ويُلقي عليها تبرَهُ فيذوبُ

وينفضُ عن أعطافِها النورَ لؤلؤاً   من الطلِّ ما ضُمَّتْ عليه جيوبُ

فعالجها حتى استوتْ في يمينهِ   وعادَ إلى مغناهُ وهو طروبُ

وشاءَ فأمستْ في الإناءِ سجينةً   لتشبعَ منهـا أعينٌ وقلوبُ

ثَوَتْ بين جدرانٍ كقلبِ مُضيمِها   تلمَّسُ فيها منفذاً فتخيبُ

فليستْ تحيي الشمسَ عند شروقِها   وليستْ تحيي الشمسَ حينَ تغيبُ

ومَنْ عُصِبتْ عيناهُ فالوقتُ كلُّهُ   لديهِ، وإنْ لاحَ الصباحُ، غروبُ

*

لها الحجرةُ الحسناءُ في القصرِ إنما   أحبُّ إليها روضةٌ وكثيبُ

وأجملَ من نورِ المصابيحِ عندها   حباحبُ تمضي في الدجى وتؤوبُ

ومن فتياتِ القصرِ يرقصنَ حولها   على نغماتٍ كلهنَّ عجيبُ

تراقصُ أغصانُ الحديقةِ بكرةً   وللريحِ فيها جيئةٌ وذَهوبُ
وأجملَ منهنَّ الفراشاتُ في الضحى   لها كالأماني سكنةٌ ووثوبُ
وأبهى من الديباجِ والخزُّ عندها   فراشٌ من العشبِ الخضيلِ رَطيبُ
وأحلى من السقفِ المزخرفِ بالدُّمى   فضاءٌ تشعُّ الشهبُ فيه رحيبُ
تحنُّ إلى مرأى الغديرِ وصوتِهِ   وتحرمُ منه، والغديرُ قريبُ
وليسَ لها للبؤسِ في نَسَمِ الرُّبى   نصيبٌ، ولم يسكنْ لهنَّ هبوبُ
إذا سُقيتْ زادتْ ذبولًا كأنما   يرشُّ عليها في المياهِ لهيبُ
وكانت قليلُ الطلِّ ينعشُ روحَها   وكانتْ بميسورِ الشُّعاعِ تطيبُ
بها من أنوفِ الناشقينَ توعُّكٌ   ومِنْ نظراتِ الفاسقينَ ندوبُ
تمشّى الضنى فيها وأيارُ في الحمى   وجفّتْ وسربالُ الربيعِ قشيبُ
ففيها كمقطوعِ الوريدينِ صُفرةٌ   وفيها كمصباحِ البخيلِ شحوبُ

*

أيا زهرةَ الوادي الكئيبةَ إنني   حزينٌ لما صرتِ إليهِ كئيبُ
وأكثرَ خوفي أن تظني بني الورى   سواءً، وهُمْ مثلُ النباتِ ضروبُ
وأعظمَ حزني أنَّ خطبَكِ بعدهُ   مصائبُ شتّى لم تقعْ وخطوبُ
سيطرحكِ الإنسانُ خارجَ دارِهِ   إذا لم يكنْ فيكِ العشيةَ طيبُ

فتُمسينَ للأقذارِ فيكِ ملاعبٌ   وفي صفحتيكِ للنعالِ ضروبُ
إسارُكِ، يا أختَ الرياحينِ، مفجعٌ   وموتُكِ، يا بنتَ الربيعِ، رهيبُ
ولكنها الدنيا، ولكنه القضا   وهذا، لَعَمْري، مثل تلكَ غريبُ
فكمْ شَقيَتْ في ذي الحياةِ فضائلٌ   وكم نَعِمَتْ في ذي الحياةِ عيوبُ
وكمْ شيمٍ حسناءَ عاشتْ كأنها   مساوئُ يُخشى شرُّها وذنوبُ



بنت الفرقدين

أزورُ فتُقصيني وآناى فتعتبُ   وأوهم أني مذنبٌ حين تغضبُ

وأرجو التلاقي كلّما بخلت بهِ   كذلكَ يُرجى البرقُ والبرقُ خُلّبُ

وأعجبُ من لاحٍ يُطيلُ ملامتي   ويعجبُ مني عاذلي حين أعجبُ

هو البخلُ طبْعٌ في الرجالِ مُذمّمٌ   ولكنّه في الغيدِ شيءٌ مُحبّبُ

كلفتُ بها بيضاء سكرى من الصِّبا   وما شربتْ خمراً ولا هيَ تشربُ

لها الدرُّ ثغرٌ واللجينُ ترائبٌ   وشمسُ الضُحى أمٌ وبدرُ الدُّجى أبُ

خليليَ أما خدُّهـــا فوردُهُ   حياء واما ثغرها فهو اشنبُ

لئِنْ فرقتْ بينَ الغواني جمالَها   لدامَ لها ما يجعلُ الغيدَ تغضبُ

ولو أن رهبانَ الصوامعِ أبصروا   ملاحتَهَا واللهِ لم يترهّبوا

تُكلّفني في الحبِّ ما لا أُطيقهُ   وتضحكُ إما جئتُها أتعتّبُ

أفاتني حسبُ المتيّمِ مـــا بِهِ   وحسبُكِ أني دونَ ذنبٍ أعذّبُ

أُحبكِ حبَّ النازحِ الفردِ أهلهُ   فهل منكِ حبُّ الأهلِ من يتغرّبُ؟

وهبتُكِ قلبي واستعضتُ به الأسى   وهبتُكِ شيئاً في الورى ليسَ يوهبُ

فإنْ يَكُ وصلٌ فهوَ ما أتطلّبُ   وإن يَكُ بُعْدٌ فالمنيّةُ أقربُ

الحسن لا يشرى ولا يستجلب

سَفَرَتْ فَقُلْتُ لها أهذا كوكبٌ   قالتْ أجل وأينَ مني الكوكبُ؟

وَتَبَسَّمَتْ فرأيتُ رِفماً ضاحكاً   عن لؤلؤٍ لكنّه لا يوهبُ

وتمايلتْ فالسمهريُّ مصممٌ   ورَنَتْ فأبصرتُ السِّهامَ تُصوّبُ

أنشبتُ ألحاظي بوَرْدِ خدودِهَا   لمّا رأيتُ لحاظَها بي تنشبُ

قد كلّمَتْ قلبي ولم تَرْفُقْ بِهِ   واللّحظُ لو دَرَتِ المليحةُ مخلبُ

بيضاء ناصعةٌ كأنّ جبينَهَا   صبحٌ وطرّتُها عليهِ غيْهَبُ

يا طالما اكتسبَ الحريرُ ملاحةً   منها ويُكسبُ غيرَهَا ما يَكْسَبُ

ولطالما بعضُ النساء حسدْنَها   ولطالما حَسَدَ السليمَ الأجربُ

بينَ الطـــلاء وبينهنَّ قرابةٌ   مشهورةٌ عنها الجبلةُ تنكبُ

إنَّ الملاحةَ عندَهـا عربيةٌ   وجمالُ هاتيكَ الدُّمى مُستعربُ

قلْ للغواني إنّها خُلِقَتْ كذا   ألحسنُ لا يُشرى ولا يُستجلبُ

فـــإذا بلغنَ الجمالَ تطرّباً فاعلمنَ أنّ بقاءهُ مُستصعبُ
هيهاتِ ما يُغني الملاحَ الحسنُ إن كانتْ خلائقهنّ لا تُستعذبُ
إني بَلَوتُ الغانياتِ فلمْ أجدْ فيهنّ قطُّ مليحةً لا تكذبُ
وصحبتهنّ فما استفدتُ سوى الأسى ما يُستفادُ من الغواني يُتعِبُ
وخبرتهنّ فما لبكرٍ حرمةٌ ترعى وأغدرُ من رأيتُ الثيّبُ
لا يخدعنكَ ضعفهنّ فإنّما بالضعفِ أهلكتِ الهزبرَ الأرنبُ

أهلها عرب

أقاحُ ذاكَ أم شَنَبُ وريقُ ذاكَ أم ضَرَبُ
ووَجهُ ذاكَ أم قمرٌ وخدُّ ذاكَ أم ذهبُ
جَمالٌ غيرُ مُكتسَبٍ وبعضُ الحسنِ يُكتسَبُ
ثَكِلتِ الطرفَ ، عاذلتي أهذا الحسنُ يُجتنَبُ ؟
عَدَدْتِ لها العيوبَ ولي سَ إلّا الظَّرفُ والأدبُ
فتـــاةٌ بَين مَبْسَمِها وبينَ عُقودِها نَسَبُ
لواحِظُها نمتها الهندُ لكنْ أهلُها عَرَبُ
مُرنَّحةٌ إذا خطَرَتْ رأيتَ الغصنَ يضطرِبُ
مَشَتْ ووَنَتْ روادِفُها فَكادَ الخصرُ ينقضِبُ
يُسَرُّ العـــاذلونَ إذا نأتْ ويعودُني الوَصَبُ
ويَصطخِبونَ إنْ قرُبَتْ وعندي يحسُنُ الطَّرَبُ
فأبكي كلّما ضحكوا وأضحكُ كلّما غضبوا !

شاعر الدير

ألقيت في حفلة تكريم الشاعر مسعود سماحة

عادتْ رياضُ القوافي وهي حاليةٌ ... وكانَ صوّحَ فيها الزّهرُ والعشبُ
واسترجعتْ دولةُ الأقلامِ نخوتَها ... وكانَ أدركها الإعياءُ والتعبُ
بشاعرٍ عبقريٍّ في قصائـــدِهِ ... عطرٌ، وخمرٌ، وسحرٌ رائقٌ عَجَبُ
فاشربْ بروحِكَ خمراً كلُّها أرَجٌ ... وانشقْ بروحِكَ عطراً كلُّهُ طَرَبُ
وامرحْ بدنيا جمالٍ من تصوُّرِهِ ... فإنها السحرُ إلا أنهُ أدَبُ
والبسْ مطارفَ حاكَتْها يراعتُهُ ... تبقى عليكَ ويَبلى الخزُّ والقَصَبُ
كم درةٍ يتمنّى البحرُ لو نُسِبَتْ ... إليه بانتْ إلى مسعودَ تنتسِبُ
لو أنها فيهِ لم تهتجْ غواربُهُ ... لكنها لسواهُ فهو يصطخِبُ
فلا جناحُ إذا ما قالَ شاعرُنا ... للبحرِ — يا بحرُ أغلى الدرِّ ما أهَبُ!

★

يا شاعرَ «الديرِ»[1] كمْ هلهلتَ قافيةً ... غنّى الرواةُ بها واختالتِ الكُتُبُ

(١) دير القمر بلدة الشاعر سماحة .

طلاقةُ الفجرِ فيها وهو منبثقٌ ... ورِقّةُ الماءِ فيها وهو منسكِبُ
مرتْ على هَضباتِ الديرِ هائمةً ... فكادَ يُورقُ فيها الصّخْرُ والحَطَبُ
إذا تساقى الندامى الراحَ صافيةً ... كانتْ قوافيكَ في الرّاحِ التي شربوا
فأنتَ في ألسُنِ الأشياخِ إنْ نطقوا ... وأنتَ في هِمَمِ الشُّبانِ إنْ وثبوا

★

مسعودُ عيدُكَ والشهرُ الجميلُ[1] معاً ... قد أقبلا، وأنا في الأرضِ أضطرِبُ
يحزُّ نفسيَ أني اليومَ مبتعدٌ ... وأنتَ من حولِكَ الأنصارُ والصُّحُبُ
أُبيدُ «والناسُ» ما بيني وبينكُم ... ليتَ المهامِهَ تطوى لي فأقترِبُ
ما كانَ أسعدني لو كنتُ بينكُمُ ... كيما يؤدي لساني بعضَ ما يَجِبُ
لصاحبٍ أنا تيّاهٌ بصحبتِهِ ... وشاعرٍ طالما تاهتْ به العَرَبُ

●

(١) شهر ايار ١٩٣٩ .

شكوى فتاة

نظمها بلسان فتاة أرغمها ذووها
على الاقتران برجل طاعن في العمر

لِيَ بَعْلٌ ظنَّهُ الناسُ أبي — صدَّقوني أنَّـه غيرُ أبي
واعذِلوا عن لومِ مَنْ لو مُزِجَتْ — ما بها بالمـاء لَمْ يُستَعْذَبِ
ربَّ لومٍ لم يُفِدْ إلا العَنا — كَمْ سهامٍ سُدِّدَتْ لم تُصِبِ؟
يشتكي المرءُ لمن يرثي لَهُ — رُبَّ شكوى خَفَّفَتْ من نَصَبِ

★

زعموا أن الغواني لِعَبٌ — إنمـا اللعبةُ طبعاً للصبي
وأنا ما زلتُ في شَرْخِ الصِّبا — فلماذا فَرَّطَ الأهلونَ بي؟
ليَ قَـدٌّ وجمالٌ يزدري — ذاكَ بالغُصْنِ وذا بالكوكَبِ
قد جرى حبُّ العُلى مجرى دمي — فهي سُؤْلي والوَفا من مَشْرَبي
أنا لو يعلَمُ أهلي دُرَّةٌ — ظُلِمَتْ في البَيْعِ كالمخشلَبِ [1]

---

(١) الخرز.

أخذوا الدينارَ مني بَدَلا — أتراني سلعةً للمكتَسِبِ؟
لا، ولكن راعهُمْ عَصْرٌ بِهِ — سادَ في الفتيانِ حُبُّ الذَّهَبِ
ليسَ للآدابِ قَدْرٌ بينهمْ — آهِ لو كانَ نُضاراً أدَبي!
حَسِبُوني حينَ لازمتُ البُكا — طفلةً أجهلُ مـا يدري أبي
ثُمَّ بالغـولِ أبي هدَّدَني — أينَ مِنْ غولِ المنايا مَهْرَبي؟
أشيبٌ لو أنَّهُ يخشى الدُّجى — شابَ ذُعراً منهُ رأسُ الغَيْهَبِ
ليتَ ما بيني وبينَ النومِ من — فُرْقَةٍ بيني وبينَ الأشيَبِ
يا لَهُ فظّاً كثيرَ الحُزْنِ لا — يَعْرِفُ الأُنْسَ قليلَ الطَّرَبِ
يَخْضِبُ الشَّعْرَ ولكنْ عَبَثاً — ليسَ تَخفى لغةُ المستغرِبِ
قُلْ لأهلِ الأرضِ لا تخشوا الرَّدى — إنَّـهُ مشتغلٌ في طلبي
ولمنْ يَعْجَبُ من بُغضي لَهُ — أيهـا الجاهلُ أمري اتَّئِبِ
إنَّما الغُصْنُ إذا هبَّ الهوا — مالَ للأغصانِ لا للحَطَبِ
وإذا المرءُ قضى عصرَ الصِّبا — صارَ أولى بالرَّدى من مذهبي

أمنية الإلهة

أحبَّ إلهٌ في صباهُ إلاهةً — جرى السحرُ في أعطافها والترائبِ

تمنّتْ عليهِ آيةً لم يجيءْ بها — إلهٌ سواهُ في العصورِ الذواهبِ

ليُمسي على الأربابِ أجمعَ سيّداً ، — وتمسي تُباهي كلَّ ذاتِ ذوائبِ

وكانَ إلهاً جامحاً متضرّماً — هوىً، فأتى بالمعجِزاتِ الغرائبِ

كسا الأرضَ بالزهرِ البديعِ لأجلها — ورصّعَ آفاقَ السما بالكواكبِ

وما زالَ حتى علّمَ الطيرَ ما الهوى — فحنّتْ وغنّتْ في الذُرى والمناكبِ

وأنشأ جنّاتٍ وأجرى جداولاً — ومدَّ المروجَ الخضرَ في كلِّ جانبِ

وشاء، فشاعَ العطرُ في الماءِ والضّيا — وفي كلِّ صوتٍ أو صدىً متجاوبِ

***

ومسَّ الضحى فارفضَّ تِبراً على الربى
وسالَ عقيقاً في حواشي السباسبِ

وقالَ لأحلامِ البحارِ تجسّدي — مواكبَ ألوانٍ وجيشَ عجائبِ

فكانتْ لآلٍ في الشطوطِ ، وفي الفضا
غيومٌ ، وموجٌ ضاحكٌ في الغواربِ

ولما رأى الأشياءَ أحسنَ ما تُرى — وتمّتْ له دنيا بغيرِ معايبِ

دعاها إليهِ كي تباركَ صُنعَهُ — ولم يدرِ أنَّ الحبَّ جمُّ المطالبِ

فقالتْ له : أحسنتَ ! أحسنتَ مبدعاً
فيا لكَ ربّاً عبقريَّ المواهبِ

ولكنْ لي أمنيةً ما تحقّقتْ — إذا لم تُنِلْنيها فما أنتَ صاحبي !

***

فدنياكَ هذي على حُسنها — وسحرِ مشاهدِها والصورْ

تُشاركني سائرُ الالآهاتِ — لذاذاتِها ونساءُ البشرْ

***

أريدُ دنيا فيها شُعاعٌ — يبقى أذا غابتِ النجومْ

أريدُ دنيا تُحسُّ نفسي — فيها نفوساً بلا جسومْ

أريدُ خمراً بلا كؤوسٍ — من غيرِ ما تُنبتُ الكرومْ

أريدُ عطراً بلا زهورٍ — يَسري وإن لم يكُنْ نسيمْ

***

وزادتْ فقالتْ : أريدُ أنيناً — يُشوّشُ روحي ولا تحتضرْ

ومـاءً يموجُ ولا جدولُ ، — وناراً بلا حطبٍ تستعرْ

فأطرقَ ذاكَ الالهُ الفتيُّ … وفي نفسهِ ألمٌ مستترْ
وقال امهليني ثلاثَ ليـــالٍ … أذلّلُ فيها المرادَ العَسِرْ !

***

وراحَ يجوبُ رحابَ الفضاء … يحدوه شوقٌ ويدعوه سِرْ
فسالَ مع الشمسِ فوقَ الربى … وغلغلَ في الحِندسِ المعتكِرْ
وأصغى إلى نَسَمات المروجِ … وأصغى إلى نفحاتِ الزَّهَرْ
وبعدَ ثلاثِ ليالٍ أتاهـــا … فظنته جاء لكي يعتذِرْ
فقـــالَ وجدتُ الذي تطلُبينَ … لدى شاعرٍ ساحرٍ مبتكِرْ
وأخرجَ خيطاً قصيرَ المدى … بلونِ الترابِ ولينِ الشَّعَرْ
فلمـــا رأتهُ عراها الأسى … وغوَّرَ إيمانُهـــا واندثرْ
فصاحتْ بغيظٍ : أتسخرُ مني ؟ … إذن فاحمِلِ العارَ ، او فانتحِرْ !
أجـــابَ رُويدَكِ ، يا ربَّتي … فما في التعجُّلِ إلّا الضررْ !
وشدَّ إلى آلةٍ خيطَهُ … ودغدغهُ صامتـــاً في حذَرْ
ففاضتْ خمورٌ ، وسالت دموعٌ ، … وشعَّتْ بروقٌ ، ولاحتْ صورْ !
فصاحتْ به وهي مدهوشةٌ : … ألا إنَّ ذا عـــالمٌ مُختصَرْ !
فيا ليتَ شعريَ ماذا يسمّى ؟ … فقالَ لها : إن هذا الوترْ !

أنا

حرٌ ومذهبُ كلِّ حُرٍّ مذهبي … ما كنتُ بالغاوي ولا المتعصبِ
إني لأغضبُ للكريمِ ينوشُهُ … مَن دونهُ وألومُ من لم يغضبِ
وأحبُّ كلَّ مهذبٍ ولو انَّهُ … خصمي ، وأرحم كلَّ غيرِ مهذبِ
يأبى فؤادي أن يميلَ إلى الأذى … حبُّ الأذيةِ من طِباعِ العقربِ
لي أن أردَّ مساءةً بمساءةٍ … لو انني أرضى ببرقٍ خُلَّبِ
حسبُ المسيء شعورُهُ ومقالُهُ … في سرِّهِ : يا ليتَني لم أذنبِ

***

أنا لا تغشُّني الطيالسُ والحلى … كم في الطيالسِ من سقيمٍ أجربِ ؟
عيناكَ من أثوابِهِ في جنَّةٍ … ويداكَ من أخلاقهِ في سبسبِ
وإذا بصرتَ بِهِ بصرتَ بأشمطٍ … وإذا تحدثُهُ تكشَّفَ عن صبي
إني إذا نزلَ البلاءُ بصاحبي … دافعتُ عنه بناجذي وبمخلبي

وشددتُ ساعِدهُ الضعيفَ بساعدي
وسترتُ منكبهُ العريَّ بمنكبي

وأرى مساوئَهُ كأنّيَ لا أرى   وأرى محاسنهُ وإنْ لم تُكتَبِ
وألومُ نفسي قبلهُ إن أخطأَتْ   وإذا أساءَ إليَّ لم أتعتّبِ
متقرّبٌ من صاحبي فإذا مَشَتْ   في عطفهِ الغلواءُ لم أتقربِ
أنا من ضميري ساكنٌ في معقلٍ   أنا من خلالي سائرٌ في موكبِ
فـإذا رآني ذو الغباوةِ دونَهُ   فكما ترى في الماء ظلّ الكوكبِ

•

هدايا العيد

خرجَ الناسُ يشترونَ هدايا   العيدِ للأصدقـاء والأحبابِ
فتمنّيتُ لو تُساعفني الدنيا   فأقضي في العيدِ بعضَ رغابي
كنتُ أُهدي، إذنْ، من الصبرِ أرطا   لًا إلى المنشئينَ والكتّابِ
وإلى كلّ نابغٍ عبقريٍّ   أمّةً أهلهـا ذوو ألبابِ
وإلى كلّ شاعرٍ عربيٍّ   سلّةً من فواكهِ الألقابِ
وإلى كلّ تاجرٍ خُرِمَ التو   فيقَ زِقّينِ من عصيرِ الكُذّابِ
وإلى كلّ عـاشقٍ مقلةً تُبـ   صرُ كَمْ من ملاحةٍ في الترابِ
وإلى الغـادةِ الجميلةِ «مرآ   ةً» تُريهـا ضمائرَ العُزّابِ
وإلى الناشىءِ الغريرِ مِرَاناً   وإلى الشيخِ عزمةً في الشبابِ
وإلى معشرِ الكُسالى قصوراً   من لُجَينٍ وعَسجدٍ في السحابِ
علّني أستريحُ منهمْ فقد صا   روا كظلّي في جَيئتي وذَهـابي
وإلى ذي الغِنى الذي يَرْهَبُ   الفقرَ ازديادَ الذي بِهِ مِنْ عذابِ

كلّما عدَّ مـــالهُ مطمئناً   أبصرَ الفقرَ واقفاً بالبـــابِ

وإلى الصاحبِ المراوغِ وجهاً   أسوداً حالكاً كوجهِ الغرابِ

فإذا لاحَ فرّتِ الناسُ ذعراً   من طريقِ المنافقِ الكذّابِ

وإلى المؤمنينَ شيئاً من الشكّ   وبعضَ الإيمـــانِ للمرتابِ

وإلى مَنْ يسبُّني في غيابي   شرفاً كي يصونهُ من سبابي

وإلى حاسديَّ عمراً طويلاً   ليدومَ الأسى بهمْ مما بي

وإلى الحقلِ زهرهُ وحـــلاهُ   من ندًى لامعٍ ومن أعشابِ

فقبيحٌ أن ترتدي الحللَ القشـ   بَ وتبقى الرُّبى بغيرِ ثيابِ

لم يكنْ لي الذي أردتُ فحسبي   أنني بالمنى ملأتُ وِطَـــابي

ولو انَّ الزمانَ صاحبَ عقلٍ   كنتُ أهدي إلى الزمانِ عتابي

•

في القفر

سئمتْ نفسي الحياةَ مَعَ الناسِ،   وملّتْ حتى مِنَ الأحبابِ

وتمشتْ فيهـــا الملالةُ حتى   ضجرتْ من طعامِهمْ والشرابِ

ومِنَ الكذبِ لابساً بُردةَ الصدقِ،   وهذا مسربلاً بالكذابِ

ومِنَ القُبحِ في نقابٍ جميلٍ   ومنَ الحسنِ تحتَ ألفِ نِقابِ

ومنَ العابدينَ كلَّ إلهٍ   ومنَ الكافرينَ بالأربابِ

ومنَ الواقفينَ كالأنصابِ   ومنَ الساجدينَ للأنصابِ

ومنَ الراكبينَ خيلَ المعـــالي   ومنَ الراكبينَ خيلَ التصابي

والألى يصمتونَ صمتَ الأفاعي   والألى يهزجونَ هزجَ الذبابِ

صغرتْ حكمةُ الشيوخِ لديها   واستخفّتْ بكلِّ ما للشبابِ

قالتِ اخرجْ من المدينةِ للقفرِ   ففيهِ النجـــاةُ من أوصابي

ولْيكُ الليلُ راهبي، وشموعي   الشهبُ، والأرضُ كلها محرابي

وكتابي الفضاءُ أقرأُ فيهِ   سُوَراً مـــا قرأتُها في كتابِ

وصلاتي الذي تقولُ السواقي   وغنائي صوتُ الصَّبا في الغابِ

وكؤوسي الأوراقُ ألقتْ عليها   الشمسُ ذَوْبَ النُّضارِ عندَ الغيابِ

ورحيقي ما سالَ من مُقلةِ الفجرِ   على العشبِ كاللُّجينِ المذابِ

وَلْتُكَحِّلْ يَدُ المساءِ جفوني — وَلْتُعانِقْ أحلامُهُ أهدابي
وَلْيُقَبِّلْ فَمُ الصباحِ جَبيني — وَلْيُعَطِّرْ أريجُـــهُ جلبابي
ولأكنْ كالغرابِ رزقيَ في الحقـ — ـلِ، وفي السفحِ مجثمي واضطرابي
ساعةٌ في الخلاءِ خيرٌ من الأ — عوامِ تُقضى في القصرِ والأحقابِ

يا لَنَفسي فإنهـــا فتنتني — بالحديثِ المنمّقِ الخلّابِ
فإذا بي أمَلُّ القصورَ، وسكنا — ها، وأهلَ القصورِ ذاتِ القبابِ
فهجرتُ العمرانَ تنفضُ كفّي — عَنْ ردائي غبارَهُ وإهـــابي
وتركتُ الحِمى وسرتُ وإياها — وَقَدْ ذَهَّبَ الأصيلُ الروابي
نهتدي بالضحى، فإنْ عسعسَ الليـ — ـلُ جَعَلْنا الدليلَ ضوءَ الشهابِ
وقضَيْنا في الغابِ وقتاً جميلاً — في جوارِ الغدرانِ والأعشابِ
تارةً في ملاءةٍ من شُعاعٍ — تارةً في ملاءةٍ من ضَبابِ
تارةً كالنسيمِ نمرحُ في الوا — دي، وطوراً كالجدولِ المنسابِ
في سفوحِ الهضابِ والظلُّ فيها، — ومعَ النورِ وهوَ فوقَ الهضابِ
إنما نفسيَ التي ملتِ العمرانَ — ملّتْ في الغابِ صمتَ الغابِ
فـــأنا فيهِ مستقلٌ طليقٌ — وكأني أدبُّ في سردابِ

علمتني الحياةُ في القفرِ أني، — أينما كنتُ، ساكنٌ في الترابِ
وسأبقى ما دمتُ في قفصِ الصلصالِ عبدَ المُنى أسيرَ الرغـــابِ
خلتُ أني في القفرِ أصبحتُ وحدي — فإذا الناسُ كلُّهمْ في ثيابي!

يا رفاقي

القصيدة التي ألقاها الشاعر في حفلة تكريم الدكتور ظافر الرفاعي وزير خارجية سوريا والدكتور فريد زين الدين سفير سوريا في واشنطن ومندوبها الدائم في الأمم المتحدة .

جعتُ والخبزُ وفيرٌ في وطابي — والسنا حولي وروحي في ضبابِ
وشربتُ الماءَ عذباً سائغاً — وكأني لم أذقْ غيرَ سرابِ
حيرةٌ ليسَ لهـــا مثلٌ سوى — حَيْرَةِ الزورقِ في طاغي العبابِ
ليس بي داءٌ ولكني امرؤٌ — لستُ في أرضي ولا بينَ صحابي
مرّتِ الأعوامُ تتـــلو بعضَها
للورى ضحكي ولي وحدي اكتئابي
كلما استولتْ نفسي أملاً — مدّتِ الدنيا له كفَّ اغتصابِ
أفلتتْ مني حلاواتُ الرؤى — عندما أفلتُّ من كفي شبابي
بتُّ لا الإلهامُ بابٌ مشرعٌ — لي، ولا الأحلامُ تمشي في ركابي

أشتهي الخمرَ وكأسي في يدي   وأحسُّ الروحَ تعرى في ثيابي
يا رفاقي حطموا أقداحكمْ   ليسَ في دنيَ خمرٌ لانسكابِ
جفَّ ضَرعُ الشعرِ عندي وذَوى   ولَكمْ عاشَ لمريٍ واحتلابِ

***

أيها السائلُ عني مَنْ أنا   أنا كالشمسِ إلى الشرقِ انتسابي
لُغَةُ الفولاذِ هاضتْ لغتي   لا يعيشُ الشدوُ في دنيا اصطخابِ
لستُ أشكو إنْ شكا غيري النوى   غربةُ الأجسامِ ليست باغترابِ
أنا كالكرمةِ لو لم تغتربْ   ما حواها الناسُ خمراً في الخوابي
أنا كالسوسنِ لو لم ينتقلْ   لم يتوّجْ زهرُهُ رأسَ كعابِ
أنا في نيويوركَ بالجسمِ   وبالروحِ في الشرقِ على تلكِ الهضابِ
في ابتسامِ الفجرِ، في صمتِ الدُّجى،   في أسى تشرينَ، في لوعةِ آبِ
أنا في الغوطةِ زهرٌ ونَدًى   أنا في «لبنانَ» نجوى وتصابي
ربِّ هَبْني لبلادي عَوْدَةً   وليكنْ للغيرِ في الأخرى ثوابي

***

أيها الآتونَ من ذاكَ الحِمى   يا دُعاةَ الخيرِ، يا رمزَ الشبابِ
كم هَشَشْنا وهششتمْ للمنى   وبكيتمْ وبكينا في مصابِ؟!

واشتركنا في جهادٍ أو عذابِ   والتقينا في حديثٍ أو كتابِ؟
وعرفتمْ وعرفنا مثلكمْ   أنما الحقُّ لذي ظفرٍ ونابِ
كلُّ أرضٍ نامَ عنها أهلُها   فهيَ أرضٌ لاغتصابٍ وانتهابِ
إنني ألمحُ في أوجهكمْ   دفقةَ النورِ على تلكَ الروابي
وأرى أشباحَ أعوامٍ مضتْ   في كفاحٍ ونضالٍ ووثابِ
وأرى أطيافَ عصرٍ زاهرٍ   طالعٍ كالشمسِ من خلفِ الحجابِ
ليتهُ يُسرعُ كي أبصرهُ   قبلَ أن أغدو تراباً في الترابِ

•

أمنية المهاجر *

جُعتُ والخبزُ وثيرٌ في وِطابي ... والسَّنا حولي وروحي في ضَبابِ
وشَربتُ المَــاءَ عذباً سائِغاً ... وكأنّي لمْ أذُقْ غيرَ سَرابِ
مِحنةٌ ليسَ لهــا مِثلٌ سوى ... مِحنَةِ الزَّورَقِ في طاغي العُبابِ
ليسَ بي داءٌ ولكنّي امرؤٌ ... لَستُ في أرضي ولا بينَ صِحابي
مرَّتِ الأعوامُ تتلو بعضها ... لِلوَرى ضِحكي ولي وَحدي اكتِئابي
كلّما استوقَفتْ نفسي أملاً ... مَدَّتِ الدُّنيا لهُ كفَّ اغتِصابِ
أفلتَتْ مني حَلاواتُ الرُّؤى ... عِندَما أفلتَ مِن كفّي شَبابي
بِتُّ لا الإلهامُ بابٌ مُشرَعٌ ... لي ولا الأحلامُ تمشي في رِكابي
أشتهي الخمرَ وكأسي في يدي ... وأحِسُّ الرّوحَ تَعرى في ثيابي
ربِّ هَبني لِبِلادي عَودَةً ... وَلْيَكُنْ للغيرِ في الأُخرى ثوابي

. . .

أيُّها الآتونَ مِن ذاكَ الحِمى ... يا دُعاةَ الخيرِ، يا رمزَ الشَّبابِ
كمْ هَشَشتمْ وهَشَشنا للمُنى ... وبَكيتُمْ وبَكينا في مُصابِ
واشتَرَكنا في جِهادٍ أو عَذابِ ... والتقَينا في حَديثٍ أو كِتابِ
وعَرفتُمْ وعَرَفنا مِثلَكُم ... أنَّمــا الحقُّ لذي ظُفرٍ ونابِ
كلُّ أرضٍ نامَ عنها أهلُهــا ... فهي أرضٌ لاغتِصابٍ وانتِهابِ
زَعَموا الإنسانَ بالعِلمِ ارتقى ... وأراهُ لم يزَلْ إنسانَ غابِ
إنّهُ الثّعلبُ مَكراً وهو كالنَّسـ ... ـرِ طِعانٍ غدراً وحكيمٌ كالغُرابِ
يا رِفاقي حَطِّموا أقداحَكُمْ ... ليسَ في الدُّنيا رَحيقٌ لانسِكابِ
جَفَّ ضَرعُ الشِّعرِ عِندي وانطوى ... ولَكَم عاشَ لِمَرعى واحتِلابِ

. . .

أيُّهــا السّائِلُ عنّي مَن أنا ... أنا كالشَّمسِ إلى الشّرقِ انتِسابي
لُغةُ الفولاذِ هاضَتْ لُغتي ... لا يَعيشُ الشَّدْوُ في بحرِ اصطِخابِ
لستُ أشكو إنْ شكا غيري النَّوى ... غُربَةُ الأجسامِ ليستْ باغتِرابِ
أنا في نيويوركَ بالجِسمِ وبالرُّ ... وحِ في الشّرقِ على تِلكَ الهِضابِ
في ابتِسامِ الفجرِ في صَمتِ الدُّجى ... في أسى «تِشرينَ» في لَوعةِ «آبِ»

(*) ألقيت بمناسبة زيارة وزير خارجية سورية الولايات المتحدة في خريف ١٩٥٢.

أنا في الغوطةِ زهرٌ ونَدى — أنا في لُبنانَ نجوى وتَصابي

أنني ألمــحُ في أوجُهِكم — دَفقةَ النُّورِ على تلكَ الرَّوابي

وأرى أشباحَ أيامٍ مضتْ — في كِفاحٍ ونِضالٍ ووِثابِ

وأرى أطيافَ عصرٍ باهرٍ — طالِعٍ كالشمسِ من خلفِ الحِجابِ

ليتَهُ يُسرعُ كي أُبصِرَهُ — قبلَ أن أغدُو تُراباً في تُرابِ



الرأي الصواب

يا نَفسُ هذا منزلُ الأحبابِ — فانسَيْ عذابَكِ في النَّوى وعَذابي

وتهلَّلي كالفجرِ في هذا الحِمَى — وتألَّقي كالخمرِ في الأكوابِ

ولتمسحِ البُشرى دموعَكِ مثلما — يمحو الصباحُ ندًى عنِ الأعشابِ

واسترجعي عهدَ البشاشةِ والرِّضى — فالدهرُ عادَ تضاحُكاً وتَصابي

أنا بينَ أصحابي الذينَ أحبُّهمْ — ما أجملَ الدنيا معَ الأصحابِ

قد كنتُ مثلَ الطائرِ المحبوسِ في — قفصٍ، ومثلَ النجمِ خلفَ ضبابِ

يمتدُّ في جُنحِ الظلامِ تأوُّهي — ويطولُ في أذنِ الزمانِ عتابي

وأهزُّ أقلامي فترشحُ حدَّةً — وأسىً، ويَندى بالدموعِ كتابي

حتى لقيتكمُ فبتُّ كأنني — لمسرَّتي استرجعتُ عصرَ شبابي

ليسَ التعبُّدُ أنْ تبيتَ على الطَّوى — وتروحَ في خِرَقٍ مِنَ الأثوابِ

لكنّهُ إنقــاذُ نفسٍ معذَّبٍ — من رِبقَةِ الآلامِ والأوصابِ

ليسَ التعبُّدُ عزلةً وتنسُّكاً — في الديرِ أو في القفرِ أو في الغابِ

لكنّهُ ضَبْطُ الهوى في عالمٍ — فيهِ الغوايةُ جمّةُ الأسبابِ

وحبائلُ الشيطانِ في جنباتِهِ — والمالُ فيهِ أعظمُ الأربابِ

هذا هو الرأيُ الصوابُ وغيرُهُ — مهما حلا للناسِ غيرُ صوابِ

موكب التراب

في يوم من ايام الصيف الشديد الحر كان الشاعر جالساً مع بعض اصحاب له امام داره فهبت ريح شديدة اثارت الغبار وعقدته في الفضاء كالسرداق . وكان في مشهد الغبار ما حمله على التفكير فنظم القصيدة التالية :

من أينَ جئتَ؟ وكيفَ عجتَ ببابي؟
يا موكبَ الأجيالِ والأحقابِ

أمِنَ القبورِ؟ فكيفَ من حلّوا بها — أهناكَ ذو ألمٍ وذو تطرابِ؟
ولهمْ صباباتٌ لنا؟ أمْ غودروا — في بلقعٍ ما فيهِ غيرُ خرابِ؟

***

أمررتَ بالأعشابِ في تلكَ الرُّبى — وذكرتَ أنكَ كنتَ في الأعشابِ
حولَ الصخورِ النائماتِ على الثرى — وعلى حواشي الجدولِ المُنسابِ
وعلامَ تصعدُ كالسحابةِ في الفضا — وإلى الترابِ مصيرُ كلِّ سحابِ
لما طلعتَ على الشعاعِ موزّعاً — مترجرجاً كخواطرِ المرتابِ
وذهبتَ في عرضِ الفضاءِ كخيمةٍ — رُفعتْ بلا عُمُدٍ ولا أطنابِ

قالَ الصحابُ ليَ: استترْ، وتراكضوا — للذعرِ يعتصمونَ بالأبوابِ
وَهَبِ اتقيتُكَ بالحجابِ فإنني — لا بدَّ خالعهُ وأنتَ حجابي
كم سارحٍ في غابةٍ عندَ الضحى — جاءَ المساءُ فكانَ بعضَ الغابِ
ومصفقٍ للخمرِ في أكوابهِ — طرباً، وطيفُ الموتِ في الأكوابِ
أنا لو رأيتُ بكَ القذى، محضَ القذى، — لسترتُ وجهي عنكَ مثلَ صحابي
لكنْ شهدتُ شبيبةً، وكهولةً، — ومنىً، وأحلاماً بغيرِ حسابِ
والشاربينَ بكلِّ كأسٍ، والأُلى — عاشوا على ظمأٍ لكلِّ شرابِ
والضاربينَ بكلِّ سيفٍ في الوغى، — والخانعينَ لكلِّ ذي قرضابِ (١)
والصارفينَ العمرَ في سُوقِ الهوى — والصارفينَ العمرَ في المحرابِ
والغيدَ بينَ جميلةٍ ودميمةٍ — والعاشقينَ ــ الصبِّ والمتصابي
والعبدَ في أغلالهِ وحبالهِ — والملكَ في الديباجِ والأطيابِ
آبوا جميعاً في طريقٍ واحدٍ — الخاسرَ المسبيَّ مثلَ السابي
فضحكتُ من حرصي على مُلكِ الصبا — وعجبتُ كيفَ مضى عليهِ شبابي
ووقعتَ أنتَ على ترابٍ ضاحكٍ — لمّا وقعتَ عليَّ في جلبابي
وكذاكَ أشواقُ الترابِ مآلها — ولئنْ تقادمَ عهدُها لترابِ

(١) القرضاب : السيف القطّاع .

العليقة

ذاتُ شوكٍ كالحرابِ أو كأظفارِ العقابِ

ربضتْ في الغابِ كاللصِ، لِفتكٍ واستلابِ

تقطعُ الدربَ على الفلاحِ والمولى المهابِ

صنتُ عنها حُرَّ وجهي، فتصدّت لثيابي

كلمـــا أفلتُّ من نابٍ تلقتني بنابِ

فلها نهشُ الأفاعي، ولهـــا لسعُ الذبابِ

وأذاها في سكوني، كأذاها في اضطرابي

وهي كالقيدِ لساقي، ولجيدي كالسِّخابِ (1)

فكأنّا في عناقٍ، لا نضالٍ ووثابِ

. . .

قلتُ: يا ساكنةَ الغابِ، ويا بنتَ الترابِ

لا تَلجّي في اجتذابي، أو فلجّي في اجتذابي

(1) السِّخاب: قلادة من قرنفل ونحوه، ليس فيها لؤلؤ ولا جوهر.

إنْ عوداً فيه ماءٌ ليسَ عوداً لاحتطابِ

أنا في فجرِ حياتي، أنا في شَرْخِ شبابي

الهوى ملءُ فؤادي، والصبى ملءُ إهابي

والمنى تنبتُ في دربي وتمشي في رِكابي

أنا لم أضجرْ مِنَ العيشِ ولم أملَلْ صحابي

لم أزلْ ألمحُ طيفَ المجدِ حتى في السرابِ

لم أزلْ أستشعرُ اللذّةَ حتى في العذابِ

لم أزلْ أستشرفُ الحسنَ ولو تحتَ نقابِ

. . .

ما بنفسي خشيةُ الموتِ ولا مِنْهُ ارتهابي

أنا للأرضِ، وإنْ طالَ عن الأرضِ اغترابي

غيرَ أني لم يزلْ ضرعي لمريٍ واحتلابِ

لم أهبْ كلَّ الذي عندي، ولم يفرغْ وطابي

. . .

أنا نهرٌ لم أُتمم بعدُ في الأرضِ انسيابي

أنا روضٌ لم أذعْ كلَّ عبيري وملابي

أنا نجمٌ لم يمزّقْ بعدُ جلبابَ الضبابِ
أنا فجرٌ لم تتوّجْ فضتي كلَّ الروابي
لي رغـــابٌ لم تلدْ بعدُ فتَبْلى بالتبابِ ؟
وبنفسي ألفُ معنى لم يُضمَّنْ في كتابِ

. . .

فإذا استنفدتُ ما في دنّ نفسي من شرابِ
وإذا أنجمُ آمـــالي توارتْ في الحجابِ
وإذا لم يَبْقَ في غيميَ مـــاء لانسكابِ
وإذا مـــا صرتُ كالعلّيقِ تمثالَ اكتئابِ
لا يُرجيني محتاجٌ ، ولا يطمعُ سابِ
فاجذبيني . . . إنْ يكنْ منّيَ نفعٌ للترابِ

•

بلا قلب . . .

وقائلةٍ مـــاذا لقيتَ من الحبِّ
فقلتُ الرّدى والخوفَ في البعدِ والقربِ
فقالتْ عهدتُ الحبَّ يكسبُ ربّــهُ
شمائلَ غراً لا تنالُ بـــلا حبِّ
فقلتُ لهـــا قد كانَ حباً فزادهُ
نفورُ المُنى راءه فأمسيتُ في حربِ
وقد كانَ لي قلبٌ وكنتُ بـــلا هوىً
فلمـــا عرفتُ الحبَّ صرتُ بلا قلبِ

•

بين الضحك واللعب

أعطَيْتُ مَن أعشقُها وَرْدَةً
مِن بَعْدِ أنْ أوْدَعتُها قلبي
فَجَعَلَتْ تَنثُرُ أوْرَاقَها
بأنْمُلٍ كالعَنَمِ الرَّطْبِ
لا تَسألوا العَاشِقَ عَنْ قلبِهِ
قَدْ ضَاعَ بينَ الضّحكِ واللعبِ

***

لَمْ أقطِفِ الوَرْدَةَ مِن غُصنِها
لو لَمْ تَكنْ كالخَدِّ في الإتقادْ
ولَمْ تُمَزِّقْ عِندَ أوراقَها
لَولا اشْتِباهٌ بَيْنَها والفُؤادِ!..

تحية الشام

حيِّ الشآمَ مهنداً وكتابا	والغوطةَ الخضراء والمحرابا
ليستْ قِباباً ما رأيتُ وإنما	عزمٌ تمرّدَ فاستطالَ قِبابا
فالثمْ بروحِكَ أرْضَها تلمْ عصوراً	للعلى سكنتْ حصىً وتُرابا
واهبطْ على بردى يصفّقُ ضاحكاً	يستعطفُ التلعاتِ والأعشابا
روحٌ أطلَّ من السماء عشيّةً	فرأى الجمالَ هنا... فحنَّ، فذابا
وصفا وشفَّ فأوشكتْ ضفاتُهُ	تنسابُ من وَجدٍ بهِ مُنسابا
بل أدمعُ حورُ الجنانِ ذرفْنَها	شوقاً، ولم تملكْ لهنَّ إيابا
بردى ذكرتُكَ للعطاشى فارتووا	وبني النُّهى فترشّفوكَ رِضابا
مرتْ بكَ الأدهارُ لم تخبثْ، ولم	تفسد، وكم خَبُثَ الزمانُ وطابا

★

بأبي وأمي في العراء موسّدٌ	بَعَثَ الحياةَ مطامعاً ورِغابا
لما ثَوى في ميسلونَ ترنحتْ	هَضَباتُها وتنفّستْ أطيابا
وأتى النجومَ حديثُهُ فتهافتتْ	لتقومَ حرّاساً له حجّابا

ما كانَ يوسفُ واحداً بل موكباً ... للنورِ غلغلَ في الشموسِ فغابا
هذا الذي اشتاقَ الكرى تحتَ الثرى ... كي لا يرى في جِلّقَ الأغرابا
وإذا نَبا العيشُ الكريمُ بماجدٍ ... حرٌّ رأى الموتَ الكريمَ صَوابا
إني لأزهى بالفتى وأحبُّهُ ... يهوى الحياةَ مشقةً وصِعابا
ويضوعُ عطراً كلما شدَّ الأسى ... بيديهِ يعركُ قلبَهُ الوثّابا
ويسيلُ ماءً إنْ حواهُ فدفدٌ ... وإذا طواهُ الليلُ شعَّ شهابا
وإذا العواصفُ حجّبتْ وجهَ السما ... جَدَلَ العواصفَ للسما أسبابا
وإذا تقوّضَ صرحُ آمالٍ بنى ... أملاً جديداً من رجاهُ خابا
فابنُ الكواكبِ كلُّ أفقٍ أفقهُ ... وابنُ الضراغمِ ليسَ يَعْدمُ غابا

*

عجباً لقومي والعدوُّ ببابِهم ... كيفَ استطابوا اللهوَ والألعابا؟
وتخاذلتْ أسيافُهُمْ عن سحقِهِ ... في حينِ كانَ النصرُ منهمْ قابا
تركوا الحسامَ إلى الكلامِ تعلّلاً ... يا سيفُ ليتكَ ما وَجدتَ قِرابا
دنياكَ، يا وطنَ العروبةِ، غابةٌ ... حشدتْ عليكَ أراقماً وذئابا
فالبسْ لها ماءَ الحديدِ مطارفاً ... واجعلْ لسانَكَ مخلباً أو نابا
لا شرعَ في الغاباتِ إلا شرعَها ... فدعِ الكلامَ شكايةً وعِتابا
هذي هيَ الدنيا التي أحببتَها ... وسقيتَ غيرَكَ حبَّها أكوابا

وضحكتَ مع أحلامِها، وبكيتَ في ... آلامِها، وجرعتَ معها الصّابا
وأضلَّ روحَكَ في السُّرى وأضلَّها ... ما خلتَهُ ماءً فكانَ سَرابا
ونظرتَ، والأوصابُ تنهشُ قلبَها، ... فرأيتَ كلَّ لذاذةٍ أوصابا
شاءَ الظلومُ خرابَها فإذا الورى ... لا يبصرونَ سوى نُهاهُ خَرابا
دنيا تألّقَ أمسُها في يومِها ... فاستجمعَ الأنسابَ والأحسابا
وسرى سناءُ الوحيِ من آفاقِها ... يغشى العصورَ ويغمرُ الأحقابا
ألحقُّ ما رفعتْ بهِ جُدرانُها ... والخيرُ ما زانتْ بهِ الأبوابا
فاستنطقِ التاريخَ هلْ في سِفرِهِ ... مجدٌ يُضاهي مجدَها الخلّابا؟
شابتْ حضاراتٌ، ودالتْ وانطوتْ ... أممٌ، ومجدُ أميّةٍ ما شابا
الأمسُ كانَ لها وإنَّ لها غداً ... تتلقّفُ الدنيا لَهُ إعجابا
غنّيتَ من قبلُ المحولةَ والعرا ... أفلا تغني الروضةَ المخصابا؟
عطفتْ لياليها عليكَ بشاشةً ... فانسَ الليالي غُربةً وعذابا
وانشرْ جناحَكَ فالفضاءُ منوّرٌ ... واملأْ كؤوسَكَ قد وجدتَ شرابا
فلِشدْوِ مثلِكَ كُوّنتْ، ولمثلِها ... خَلقَ الإلهُ البلبلَ المطرابا

*

ليتَ الرياضَ تعيرني ألوانَها ... لأصوغَ منها للرئيسِ خِطابا

وأقولَ إني عاجزٌ عن شكرِهِ عجزَ الأناملِ أنْ تلمَّ عُبابا

أشكو إلى نفسي العَياء فتشتكي مثلي ، وتصمتُ لا تحيرُ جوابا

فلقدْ رأيتُ البحرَ حينَ رأيتَهُ فوقفتُ مضطربَ الرؤى هيَّابا

أعميدَ سوريّا وكاشفَ ضرِّها خلقتْ يداكَ مِنَ الشيوخِ شبَابا

وبلابلُ كانتْ تئنُّ سجينةً أطلقتَها وأطرتَها أسرابا

يا صاحبَ الخلقِ المصفّى كالنّدى لو لم تكنْ بَشَراً لكنتَ سَحابا

أملُ الشبيبةِ في يديكَ وديعةٌ فارفعْ لها الأخلاقَ والآدابا

فالجهلُ أنّى كانَ فهو عقوبةٌ ، والعلمُ أنّى كانَ كانَ ثوابا

يا ويحَ نفسي كمْ تطاردُني النّوى وتهدُّ مني القلبَ والأعصابا

ودّعتُ خلفَ البحرِ أمسُ أحبةً وغداً أودّعُ ها هنا أحبابا

•

ريح الردى

عَصفَتْ ريحُ الردى بالمشعلِ

فخبـــا

***

أيهـــا النائمُ عنا والعيونْ

في سَهرْ

نحنُ من بعدِكَ أسرى للشجونْ

والكَدَرْ

تشتكي أرواحُنا ظلمَ المنونْ

والقَدَرْ

للسما ، لّلَيل ، للفجرِ الجـلي

للرُّبى

***

للأقاحي الذابلاتِ الذاوية

كالأماني

السواقي النائحـاتِ الباكيهْ

كالغواني

سَلَبَ الدهرُ حلاهـا الغاليةْ

في ثوانِ

وبشاشاتُ الزمـانِ الأولِ

والصبـا

***

يا ربيعاً من وفـاءٍ وكرَمْ

في بَدَنْ

من رأى قبلكَ دنيا من شِيَمْ

في كَفَنْ

خلصتْ روحُكَ من سجنِ الألَمْ

والشَجَنْ

ومضى للبحرِ مـاءُ الجدولِ

طـربا

***

يا كريمَ الأصلِ قد زانَكَ فعلُكْ

وصفاتُكْ

عشتَ للناسِ كأنَّ الكلَّ أهلُكْ

ولداتُكْ

لهمُ كلُّ الذي تحوي وتملكْ

وحياتُكْ !

كنتَ في دنيا الضبابِ المسْدَلِ

كوكبا

***

عصفتْ ريحُ الردى بالمشعلِ

فخبـا

فـاذا كلُّ قصورِ الأملِ

كالهبـا

الرجل والمرأة

يا ربَّ قائلةٍ والقولُ أجملُهُ ... ما كانَ من غادةٍ حتى ولو كذَبا

إلى مَ تحتقرُ الغاداتُ بينكمُ ... وهُنَّ في الكونِ أرقى منكم رُتَبا

كُنَّ لكم سبباً في كلِّ مكرُمةٍ ... وكنتمُ في شقاءِ المرأةِ السَّببا

زعمتمُ أنهنَّ خاملاتِ نُهىً ... ولو أرَدْنَ لصيَّرنَ الثَّرى ذَهَبا

فقلتُ لو لم يكنْ ذا رأيُ غانيةٍ ... لهاجَ عندَ الرِّجالِ السُّخطَ والصَّخَبا

لم تُنصفينا وقد كنا نؤمِّلُ أنْ ... لا تنصفينا لهذا لا نرى عَجَبا

هيهاتِ تَعدِلُ حسناءُ إذا حَكَمَتْ ... فالظُّلمُ طبعٌ على الغاداتِ قد غلَبا

* * *

يُحاربُ الرَّجلُ الدُّنيا فيُخضِعُها ... ويفزَعُ الدَّهرُ مذعوراً إذا غضِبا

يرنو فتضطربُ الآسادُ خائفةً ... فإنْ رنَتْ ذاتُ حُسنٍ ظلَّ مضطرِبا

فإنْ تشأْ أودعتْ أحشاءهُ بَرَداً ... وإنْ تشأْ أودعتْ أحشاءهُ لَهَبا

تُفني الليالي في همٍّ وفي تَعَبٍ ... حذارَ أنْ تشتكي من دهرِها تَعَبا

ولو درَى أنَّ هذي الشهبَ تُزعجُها ... أمسى يروِّعُ في أفلاكها الشُّهُبا

يشقى لتصبحَ ذاتُ الحَلْيِ ناعمةً ... ويحملُ الهمَّ عنها راضياً طَرِبا

فما الذي نفحتْهُ الغانياتُ به ... سوى العذابِ الذي في عينِهِ عذُبا؟

هذا هو المرءُ يا ذاتَ العفافِ فمَنْ ... يُنصفْهُ لا شكَّ فيهِ يُنصفُ الأدَبا

عنفتِهِ وهو لا ذنبَ جناهُ سوى ... أنْ ليسَ يرضى بأنْ يغدو لها ذَنَبا

السيد المجتبى (1)

سَلامٌ عَلى السَّيِّدِ المُجتَبى ... كَقَطرِ الغَمامِ وَنَشرِ الكَبا

وَيا مَرحَباً بِأَميرِ السَّلامِ ... وَقُلْ لَهُ قَولُنا مَرحَبا

قُدومُكَ بَدَّدَ عَنّا الأَسى ... كَما يَكشِفُ القَمَرُ الغَيهَبا

وَأَحيا المُنى في فُؤادِ الفَتى ... وَرَدَّ إِلى الشَّيخِ عَهدَ الصِّبى

كأني «بأيارَ» خَيرِ الشُّهورِ ... أَتاهُ البَشيرُ بِذاكَ النَّبا

فَوَشّى الرِّياضَ، وَحَلّى الحُقولَ، ... وَزانَ الوِهادَ، وَزانَ الرُّبى

وَقالَ لأَغصانِهِ صَفِّقي ... وَلِلطَّيرِ في الأَرضِ أَن تَخطُبا

وَلِلنَّسَماتِ تَجوبُ البِلادَ ... وَتَملأُها أَرَجاً طَيِّبا

وَرَنَّتْ بأُذني أَغاريدُها ... فَقُلتُ لِكَفّي أَن تَكتُبا

فَهذا القَريضُ حَفيفُ الغُصونِ ... وَشَدوُ الطُّيورِ، وَنَفحُ الصَّبا

*

(١) ألقاها في المأدبة الكبرى التي أقيمت لسيادته بعد حفلة السيامة في
[ل] سانت جورج في بروكلن نيويورك.

طَلَعتَ فَطالَ خُفوقُ الفُؤادِ ... كَأَنَّ بِهِ هِزَّةَ الكَهرُبا

وَلَيسَ بِهِ هِزَّةُ الكَهرُباءِ ... وَلكنْ رأى التّائِهَ الكَوكَبا

وَأَلقَتْ إِلَيكَ مَقاليدَها ... نُفوسٌ تَخَيَّرَتِ الأَنسَبا

فَيا صاحِبَ الشِّيَمِ الباهِراتِ ... وَيا مَنْ تُحَلُّ لَدَيهِ الحُبا

تَقَوَّلَ عَنكَ صِغارُ النُّفوسِ ... لأَمرٍ فَما أَدرَكوا مأرَبا

وَمَن يَسلُبُ الشَّمسَ أَنوارَها ... وَمَن ذا الذي يُمسِكُ الصَّيِّبا؟

فَأَحسِنْ إِلَيهِم وَإِن أَخطَأوا ... وَكُنْ كالحَيا يُمطِرُ السَّبسَبا

إِذا لَمْ تُسامِحْ وَأَنتَ الكَريمُ ... فَمَن ذا الَّذي يَرحَمُ المُذنِبا؟

*

لَقَد طَرِبَ التّاجُ وَالصَّولَجانُ ... وَحُقَّ لِهذَينِ أَن يَطرَبا

فَإِنْ هَنَّأوكَ بِما نِلتَهُ ... فَإِنّي أُهَنّي بِكَ المَنصِبا

•

١٩٣١

ليطرب(١) من شاء أن يطربا … فلست بمستمطر خلبا

عرفت الزمان قريب الأذى … فصرت إلى خوفه أقربا

وهذا الجديد أبوه القديم … ولا تلد الحية الأرنبا

أرى الكون يرمقه ضاحكاً … كمن راه في تيه كوكبا

ولو علم الخلق ما عنده … أهلوا إلى الله كي يغربا

ولو علم العيد ما عندهم … أبى أن يمزق عنه الحبا

ألا لا يغرك تهليلهم … وقولتهم لك يا مرحبا

فقد لبسوك لكي يخلعوك … كما تخلع القدم الجوربا

ولوعون بالغدر من طبعهم … فمن لم يكن غادراً جربا

وكائن فتى هزني قوله … أنا خدنك الصادق المجتبى

أرافق من شكله ضيغماً … يرافق من نفسه ثعلبا

(١) فتحت على الاتباع : والأصل فيها السكون جزماً بلام الأمر .
(زهير)

هم القوم أصحبهم مكرهاً … كما يصحب القمر الغيهبا

أراني أوحد من ناسك … على أنني في عداد الدبى

وأمرح في بلد عامر … وأحسبني قاطناً سبسبا

وقال خليلي : الهناء القصور … وكيف وقد ملئت أذؤبا

ألفت الهموم فلو أنني … قدرت تمنعت أن أطربا

كأن الجبال على كاهلي … كأن سروري أن أغضبا

وكيف ارتياح أخي غربة … يصاحب من همه عقربا

عتبت على الدهر لو أنني … أمنت فؤادي أن يعتبا

***

وجدتك والشيب في مفرقي … وودعني وأخوك الصبا

فليس بكائي عاماً خلا … ولكن شبابي الذي غيبا

فيا فرحاً بمجيء السنين … تجيء السنون لكي تذهبا

عجيب مشيبي قبل الأوان … وأعجب أن لا أرى أشيبا

فإن نوائب عاركتها … ترد فتى العشر محدودبا

ويا بنت «كولمب» كم تضحكين … كأنك أبصرت مستغربا

١٩٣١

لِيَطْرَبْ[1] مَنْ شاءَ أنْ يَطْرَبا فَلَسْتُ بِمُسْتَمْطِرٍ خُلَّبا
عَرَفْتُ الزَّمانَ قَرِيبَ الأَذى فَصِرْتُ إلى خَوْفِهِ أَقْرَبا
وَهذا الجَدِيدُ أَبُوهُ القَدِيمُ وَلا تَلِدُ الحَيَّةُ الأَرْنَبا
أَرى الكَوْنَ يَرْمُقُهُ ضاحِكاً كَمَنْ راءَ في تِيهِهِ كَوْكَبا
وَلَوْ عَلِمَ الخَلْقُ ما عِنْدَهُ أَهَلُّوا إلى اللهِ كَيْ يَغْرُبا
وَلَوْ عَلِمَ العِيدُ ما عِنْدَهُمْ أَبى أَنْ يُمَزِّقَ عَنْهُ الحِبا
أَلا لا يَغُرَّكَ تَهْلِيلُهُمْ وَقَوْلَتُهُمْ لَكَ يا مَرْحَبا
فَقَدْ لَبِسُوكَ لِكَيْ يَخْلَعُوكَ كَما تَخْلَعُ القَدَمُ الجَوْرَبا
وَلُوعُونَ بِالغَدْرِ مِنْ طَبْعِهِمْ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ غادِراً جَرَّبا
وَكائِنْ فَتىً هَزَّني قَوْلُهُ أَنا خِدْنُكَ الصّادِقُ المُجْتَبى
أُرافِقُ مِنْ شَكْلِهِ ضَيْغَماً يُرافِقُ مِنْ نَفْسِهِ ثَعْلَبا

(١) فُتحت على الاتباع : والاصلُ فيها السكون جزماً بلام الأمر .
(زهير)

هُمُ القَوْمُ أَصْحَبُهُمْ مُكْرَهاً كَما يَصْحَبُ القَمَرُ الغَيْهَبا
أَراني أَوْحَدَ مِنْ ناسِكٍ عَلى أَنَّني في عِدادِ الدُّبى
وَأَمْرَحُ في بَلَدٍ عامِرٍ وَأَحْسَبُني قاطِناً سَبْسَبا
وَقالَ خَلِيلي: الهَناءُ القُصُورُ وَكَيْفَ وَقَدْ مُلِئَتْ أَذْؤُبا
أَلِفْتُ الهُمُومَ فَلَوْ أَنَّني قَدَرْتُ تَمَنَّعْتُ أَنْ أَطْرَبا
كَأَنَّ الجِبالَ عَلى كاهِلي كَأَنَّ سُرُورِيَ أَنْ أَغْضَبا
وَكَيْفَ ارْتِياحُ أَخي غُرْبَةٍ يُصاحِبُ مِنْ هَمِّهِ عَقْرَبا
عَتِبْتُ عَلى الدَّهْرِ لَوْ أَنَّني أَمِنْتُ فُؤادِيَ أَنْ يَعْتَبا

***

وَجَدْتُكَ وَالشَّيْبُ في مَفْرِقي وَوَدَّعَني وَأَخُوكَ الصِّبا
فَلَيْسَ بُكائيَ عاماً خَلا وَلكِنْ شَبابي الَّذي غُيِّبا
فَيا فَرَحاً بِمَجِيءِ السِّنِينَ تَجِيءُ السُّنُونُ لِكَيْ تَذْهَبا
عَجِيبٌ مَشِيبي قَبْلَ الأَوانِ وَأَعْجَبُ أَنْ لا أَرى أَشْيَبا
فَإِنَّ نَوائِبَ عارَكْتُها تَرُدُّ فَتى العَشْرِ مُحْدَوْدِبا
وَيا بِنْتَ «كُولُمْبَ» كَمْ تَضْحَكِينَ كَأَنَّكِ أَبْصَرْتِ مُسْتَغْرِبا

أليسَ البياضُ الذي تكرهينَ ... يُحبّبني ثغركِ الأشنَبــا

فمَن كانَ يكرهُ إشراقَهُ ... فإني أكرَهُ أنْ يُخضبَا

أحبُّكَ يا أيّهــا المستنيرُ ... وإنْ تكُ أشمتَ بي الرَّبرَبا

وأهوى لأجلكَ لمعَ البروقِ ... وأعشقُ فيكَ أقاحَ الرُّبى

***

ويا عــامُ هلْ جئتنا مُحرِماً ... فنرجوكَ أم جئتنا مُحرِبا

تولّى أخوكَ وقدْ هاجهــا ... أقلُّ سلاحٍ بنيها الظُّبى

يُجندلُ فيها الخميسُ الخميسَ ... ويصطرعُ المقنبُ المقنبَــا

إذا ارتفعَ الطرفُ في جوّها ... رأى مِــنْ عجاجتِها هيدَبا

وجيّاشةٍ برقُها رعدُهـــا ... تدكُّ مِنَ الشاهقِ المنكِبا

يسيرُ بهــا الجندُ محمولةً ... قضاءً على عجلٍ رُكّبــا

يودُّ الفتى أنّــهُ هاربٌ ... ويمنعهُ الخوفُ أنْ يهرُبا

وكيفَ النجــاةُ ومقذوفُها ... يطولُ مِنَ الشرقِ مَنْ غرّبا ؟

ولَوْ أنّهُ في ثنايا الغيومِ ... لما أمِنَ الغيمُ أنْ يُطلبــا

تسحُّ فـــلوْ أنْ تهتانَها ... حياً أنبتَ القاحلَ المجدِبا

فمـــا المنجنيقُ وأحجارُهُ ... وما الماضياتُ الرقاقُ الشّبا ؟

***

أإنْ شكتِ الأرضُ حرَّ الصّدى ... سقاها النجيعَ الورى صيّبــا

فيــا للحروبِ وأهوالِها ... أما حانَ يا قومُ أنْ تُشجبَا

هوَ الموتُ آتٍ على رغمِكمْ ... فألقوا المسدّسَ والأشطبا

وللخالقِ الملكُ والمالكونَ ... فلا تتبعوا فيكمُ أشعبــا

***

ولمْ أنسَ مصرعَ «نيتانكِ» ... ومصرعَنا يومَ طــارَ النبا

فمِنْ شدّةِ الهولِ في صدقِهِ ... رغبنا إلى «البرقِ» أنْ يكذبا

ليالِيَ لا نستطيبُ الكرى ... ولا نجدُ الماءَ مستعذَبا

وباتَ فؤادي ، به صدعُها ... وبتُّ أحـــاذرُ أنْ يرأبا

ولي ناظرٌ غرِقٌ مثلُهـــا ... مِنَ الدّمعِ بالبحرِ مُستوثِبا

إذا ما تذكّرتُها هِجتُ بي ... أسىً تتّقيهِ الحشا مخلبــا

فأمسي على كبِدي راحتي ... أخافُ معَ الدّمعِ أنْ تُسرَبا

خطوبٌ يراها الورى مثلَها ... لذلكَ أشفقُ أنْ تُكتبا

***

لقد نَكَبَ الشَّرقَ نَكباتِهِ وحاولَ أنْ يَنكبَ المَغرِبا

وأشقى نفوسَ بني آدمٍ لِيُرضي السَّراحينَ والأعقبا (1)

ولَوْ جازَ بَيْنَ الضُّحى والدُّجى لَقاتَلَ فيهِ الضُّحى الغَيْهَبا

لَعلَّكَ تمحو جِنـــاياتِهِ فتُنسى بِكَ الذَّنبَ والمُذنِبا

إذا كُنتَ لا تَستطيعُ الخُلودَ فعِشْ بيننا أثرًا طيِّبــا

فإنَّكَ في إثرِهِ راحِـــلٌ مَشيتَ السَّواكَ أوِ الهَيْدَبى !

(١) السراحين: واحدها السرحان، وهو الذئب. والأعقب: جمع مفرده عقاب وهو الطائر الجارح المعروف.

بردي يا سحب

رَضيتُ نفسي بقسمتِها فليراودْ غيريَ الشُّهُبا

كلُّ نجمٍ لا اهتداءَ بــهِ لا أبالي لاحَ أو غَرَبا

كلُّ نهرٍ لا ارتواءَ بــهِ لا أبالي سالَ أو نضبــا

مـــا غدٌ، يا مَنْ يصورهُ ليَ شيئاً رائعــاً عجبًا

مـــا لهُ عينٌ ولا أثرٌ هو كالأمسِ الذي ذَهبـــا

أسقني الصهباءَ إنْ حضرتْ ثمّ صِفْ لي الكأسَ والحَبَبا

ليسَ يَرويني مقالكَ لي أنَّهـــا العقيانُ منسكِبا

إنَّ صدقاً لا أحسُّ بهِ هـــو شيءٌ يشبهُ الكَذِبا

لا ينجي الشاةَ من سَغَبٍ أنَّ في أرضِ السُّعى عشبا

ما على مَنْ لا يطيقُ يرى نوّرَ الوادي أوِ اكتئبا

ما يفيدُ الطيرَ في قفصٍ ضاقَ هذا الجوُّ أو رَحُبـــا

. . .

بَرِّدي، يا سحبُ، من ظمأي ... واهطلي من بعد ذا ذَهَبا
أو فكوني غيرَ راحمةٍ ... حمماً حمراء لا سُحُبا
ولأكنْ وحدي لها هَدَفاً ... ولتكنْ نفسي لها حَطَبا
أنا من قومٍ إذا حزنوا ... وجدوا في حزنهمْ طَرَبا
وإذا ما غايةٌ صَعُبَتْ ... هوَّنوا بالتركِ ما صَعُبا



قصيدة الطبيعة

روضٌ إذا زرتَهُ كئيبا ... نَفَّسَ عن قلبِكَ الكُروبا
يعيدُ قلبَ الخليِّ مغرماً ... ويُنسي العاشقَ الحبيبا
إذا بكاهُ الغمامُ شقَّتْ ... من الأسى زهرهُ الجيوبا
تلقى لديهِ الصفا ضروباً ... ولستَ تلقى لهُ ضريبا
وشاهُ قَطْرُ الندى فأضحى ... رداؤهُ معلماً قشيبا
فمن غصونٍ تميسُ تيهاً ... ومن زهورٍ تضوعُ طيبا
ومن طيورٍ إذا تغنتْ ... عادَ المعنى بها طَروبا
ونرجسٍ كالرقيبِ يرنو ... وليسَ ما يقتضي رقيبا
وأقحوانٍ يريكَ دُرّاً ... وجلّنارٍ حكى اللهيبا
وجدولٍ لا يزالُ يجري ... كأنّهُ يقتفي مريبا
تَسْمَعُ طوراً لهُ خريراً ... وتارةً في الثرى دبيبا
إذا ترامى على جَديبٍ ... أمسى بهِ مربعاً خصيبا
أو يَتجنّى على خصيبٍ ... أعادَهُ قاحلاً جديبا
صَحَّ فلو جاءهُ عليلٌ ... لم يأتِ من بَعْدِهِ طبيبا
وكلُّ معنى بهِ جميلٌ ... يُعَلِّمُ الشاعرَ النسيبا
أرضٌ إذا زارها غريبٌ ... أصبحَ عن أرضِهِ غريبا

لا يدرك الهرم النجوم

قصيدة بعث بها الى صديقه الشاعر المرحوم مسعود سماحة .

يا شاعراً حلوَ المودّةِ في الحضورِ وفي الغيابْ
شهدٌ ولاؤكَ والأنامُ ولاؤهُمْ شهدٌ وصابْ
أنا إن شكوتُ إليكَ منكَ، وسالَ في كتْبي العتابْ
فحكايتي كحكايةِ الظمآنِ في قفرٍ يبابْ
لم يروِهِ لمعُ السرابِ فراحَ يستسقي السحابْ
فَعمى، فكانَ الخيرُ فيهِ للأباطحِ والهضابْ
«مسعودُ» أهونْ بالمشيبِ فما امّحى إلا الخضابْ
ماذا عليكَ من الثلوجِ وفي ضلوعِكَ حرُّ آبْ
الكأسُ أجملُ في النواظرِ إذ يرصّعها الحبابْ
إن شابَ منكَ المفرقانِ فما أظنُّ القلبَ شابْ
لا تزعمنَّ لهُ المتابَ فإنَّ توبتهُ كِذابْ
ما زالَ يخفقُ بالهوى، ويفيضُ بالسحرِ العجابْ

ويُريكَ دنيا لا تُحدُّ، ومن ورائكَ ألفُ بابْ
دنيا من اللذاتِ والأفراحِ في دنيا عذابْ
ويُريكَ جنّاتِ الجمالِ وأنتَ في الطللِ الخرابْ

★

أفَتى القوافي الشادياتِ كأنّها أطيارُ غابْ
إن قيلَ إنكَ صرتَ شيخاً، قلْ أجلْ شيخُ الشبابْ
أترى إذا العنوانُ ضاعَ يضيعُ مضمونُ الكتابْ
ألسيفُ ليسَ يعيبهُ مشيُ الخلوقةِ في القرابْ
والخمرُ خمرٌ في إناءٍ من لُجَيْنٍ أو ترابْ
وحياةُ مثلِكَ ليسَ تدخلُ في قياسٍ أو حسابْ
فغدٌ زمانكَ مثلُ أمسٍ وإنْ مضى عصرُ الشبابْ
لا يدركُ الهرمُ النجومَ وأنتَ في الدنيا شهابْ
وإذا يعابُ على المشيبِ فتىً فمَنْ ذا لا يُعابْ
أو كانَ يمدحُ بالسوادِ فمَنْ ترى مَدحَ الغرابْ

★

يا نفحةً من شاعرٍ أرَجَ الكتابُ بها وطابْ
الفجرُ أهدى ليَ السنا والروضُ أهدى ليَ الملابْ

الناسك

أبصرتُ في الحقلِ قُبيلَ المغيبْ

سنبلةً في سَفحِ ذاكَ الكثيبْ

حانيةً مطرقةَ الرأسِ كأنما تسجد للشمسِ

أو أنهــا تتلو صلاةَ المساء

***

فلتُ عن راهبةِ الحقــل

وسرتُ لا ألوي على ظلّي

ألتقط الحبَّ وأذريه وتارةً في النارِ ألقيه

مستخرجاً منه لجسمي غذاء

***

قد غابتِ الشمسُ وراءَ القِمَمْ

وسكتَ الطيرُ الذي لم يَنَمْ

لكنَّ ناري لم تزلْ تَرْعجُ ولم أزلْ آكلُ ما تُنضجُ

يا حبذا النارُ ونعمَ الشواء

***

وإنني في مرَحي والدَّدِ

إذ صاحَ بي صوتٌ بلا موعدِ

ما الحبُّ، يا هذا، ولا السنبلُ ما تأكلُ النارُ ومــا تأكلُ

وإنمــا أسلافكَ الاصفياء

***

لا بَشَرٌ، لا طائرٌ مائلُ

يا عجبا! نُطقٌ ولا قائلُ

من أينَ جاء الصوتُ؟ لا أدري لكنَّما ناسكةُ البرّ

قد رفَعت هامتها للعــلاء

•

يا صاح !..

يا صاحِ كَمْ تفاحةٍ غضّةٍ ... يحملها في الرَّوضِ غصنٌ رطيبْ

ناضجةٍ ترنَّحُ في جوِّهــا ... مثل ارتجاجِ الشمسِ عند المغيبْ

حرَّضكَ الوَجْدُ على قطفِها ... لمّا غفا الواشي ونامَ الرقيبْ

لكنْ لأمرٍ أنتَ أدرى به ... رجعتَ عنها رجعةَ المستريبْ

تقولُ للنفسِ الطموحِ اقصري ... ما سرقةُ التفاحِ شأنَ الأريبْ

*

وربَّ صفراءَ كلونِ الضحى ... ينفي بها أهلُ الكروبِ الكروبْ

دارتْ على الشربِ بها غادةٌ ... كأنها ظبيُ الكِناسِ الربيبْ

في طرفِكَ الساجي هيامٌ بها ... وبينَ أحشائكَ شوقٌ مذيبْ

لكنْ لأمرٍ أنتَ أدرى به ... رجعتَ عنها رجعةَ المستريبْ

تقولُ للنفسِ الطموحِ اقصري ... ما غرَّ بالصهباءِ يوماً لبيبْ

إيّاكِ إيّاكِ وأكوابَهــا ... أختُ الخنا هذي وأمُّ الذنوبْ

*

وكم شفاهٍ أرجوانيةٍ ... كأنهــا مخضوبةٌ باللهيبْ

ساعدكَ الدهرُ على لثمِها ... ورشفِ ما خلفَ اللهيبِ العجيبْ

لكنْ لأمرٍ أنتَ أدرى به ... رجعتَ عنها رجعةَ المستريبْ

تُعنِّفُ القلبَ على غيِّهِ ... وتعذلُ العينَ التي لا تغيبْ

قتلتَ نزعاتِكَ في مهدِها ... ولم تطعْ في الحبِّ حتى الحبيبْ

*

والآنَ لمّا انجابَ عنكَ الصبى ... ولاحَ في المفرقِ ثلجُ المشيبْ

واستسلمَ القلبُ كما استسلمتْ ... نفسُكَ لليأسِ المخوفِ الرهيبْ

أراكَ للحسرةِ تبكي كما ... يبكي على النائي الغريبِ الغريبْ

تودُّ لو أنَّ الصبى عائدٌ ... هيهاتَ قد مرَّ الزمانُ القشيبْ

*

خلِّ البكا يا صاحِبي والأسى ... الليلُ لا يقصيهِ عنكَ النحيبْ

لا خيرَ في الشيءِ انقضى وقتُهُ ... ما لقتيلٍ حاجةٌ بالطبيبْ !!!

فردوسي

بنيتُ فردوسي وزخرفتُهُ
حتى إذا ما تمَّ صنعتُهُ
أجريتُ في أنهارهِ كوثراً
فذاقهُ الناسُ وما ذقتُهُ



الطلاسم

جئتُ، لا أعلمُ مِن أينَ، ولكنّي أتيتُ
ولقدْ أبصرتُ قدّامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى ماشياً إن شئتُ هذا أمْ أبيتُ
كيفَ جئتُ؟ كيفَ أبصرتُ طريقي؟
لستُ أدري!

•

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوُجودْ
هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيودْ
هلْ أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مَقودْ
أتمنّى أنني أدري ولكنْ . . .
لستُ أدري!

•

وطريقي، ما طريقي؟ أطويلٌ أم قصيرٌ؟
هلْ أنا أصعدُ أمْ أهبطُ فيهِ وأغورُ

أأنا السائرُ في الدربِ أم الدربُ يسيرْ
أمْ كلانا واقفٌ والدهرُ يجري ؟
لستُ أدري !

•

ليتَ شِعري وأنا في عالَمِ الغيبِ الأمينْ
أتراني كُنتُ أدري أنني فيهِ دفينْ
وبأني سوفَ أبدو وبأني سأكونْ
أمْ تراني كُنتُ لا أدركُ شيئاً ؟
لستُ أدري !

•

أتراني قبلما أصبحتُ إنساناً سويّا
أتراني كُنتُ محواً أمْ تراني كُنتُ شيّا
ألِهذا اللغزِ حلٌّ أم سيبقى أبديّا
لستُ أدري . . . ولماذا لستُ أدري ؟
لستُ أدري !

•

البحر :
قد سألتُ البحرَ يوماً هلْ أنا يا بحرُ منكا ؟

هلْ صحيحٌ ما رواهُ بعضُهُمْ عني وعنكا ؟
أم ترى ما زعموا زوراً وبُهتاناً وإفكا ؟
ضحكتْ أمواجُهُ مني وقالتْ :
لستُ أدري !

•

أيُّها البحرُ ، أتدري كمْ مضتْ ألفٌ عليكا
وهلِ الشاطئُ يدري أنّهُ جاثٍ لديكا
وهلِ الأنهارُ تدري أنها منكَ إليكا
ما الذي الأمواجُ قالت حينَ ثارتْ ؟
لستُ أدري !

•

أنتَ يا بحرُ أسيرٌ آهِ ما أعظمَ أسركْ
أنتَ مثلي أيُّها الجبّارُ لا تملكُ أمركْ
أشبهتْ حالُكَ حالي وحكى عذري عذركْ
فمتى أنجو منَ الأسرِ وتنجو ؟ . .
لستُ أدري !

•

تُرسِلُ السُّحبَ فتسقي أرضَنا والشجَرا

قد أكلناكَ وقُلنا قد أكلنا الثَّمرا
وشَربناكَ وقُلنا قد شَربنا المَطَرا
أصوابٌ ما زَعمنا أم ضَلالٌ ؟
لَستُ أدري !

•

قد سألتُ السُّحبَ في الآفاقِ هل تذكرُ رملَكْ
وسألتُ الشَّجرَ المورقَ هل يعرفُ فضلَكْ
وسألتُ الدُّرَّ في الأعناقِ هل تذكرُ أصلَكْ
وكأنّي خِلتُها قالتْ جميعاً :
لَستُ أدري !

•

يرقُصُ الموجُ وفي قاعِكَ حربٌ لن تزولا
تخلقُ الأسماكَ لكنْ تخلقُ الحوتَ الأكولا
قد جمعتَ الموتَ في صدركَ والعيشَ الجميلا
لَيتَ شِعري أنتَ مَهدٌ أم ضَريحٌ ؟..
لَستُ أدري !

•

كَمْ فتاةٍ مِثلِ لَيلى وفتىً كابنِ المُلوَّحْ

أنفقا السَّاعاتِ في الشَّاطئ، تَشكو وهو يَشرحْ
كلَّما حدَّثَ أصغتْ وإذا قالتْ تَرنَّحْ
أحفيفُ المَوجِ سِرٌّ ضيَّعاهُ ؟..
لَستُ أدري !

•

كَمْ مُلوكٍ ضَربوا حولَكَ في اللَّيلِ القِبابا
طلعَ الصُّبحُ ولكنْ لم نجدْ إلّا الضَّبابا
ألهم يا بحرُ يوماً رَجعةٌ أم لا مآبا
أم هُم في الرَّملِ ؟ قالَ الرَّملُ إنّي..
لَستُ أدري !

•

فيكَ مِثلي أيُّها الجبّارُ أصدافٌ ورَملُ
إنّما أنتَ بلا ظِلٍّ ولي في الأرضِ ظِلُّ
إنّما أنتَ بلا عقلٍ ولي، يا بحرُ، عقلُ
فلماذا، يا تُرى، أمضي وتَبقى ؟..
لَستُ أدري !

•

يا كِتابَ الدَّهرِ قلْ لي ألَهُ قبلٌ وبَعدْ

أنا كالزورق فيه وهو بحرٌ لا يحدّ
ليس لي قصدٌ فهل للدهر في سيري قصدْ
حبذا العلم، ولكن كيف أدري؟..
لستُ أدري!

•

إن في صدري، يا بحرُ، لأسراراً عجابا
نزل الستر عليها وأنا كنت الحجابا
ولذا أزداد بعداً كلما ازددت اقترابا
وأراني كلما أوشكت أدري...
لستُ أدري!

•

إنني، يا بحرُ، بحرٌ شاطئاه شاطئاكا
الغد المجهول والأمس اللذان اكتنفاكا
وكلانا قطرةٌ، يا بحرُ، في هذا وذاكَ
لا تسلني ما غدٌ، ما أمسُ؟.. إني...
لستُ أدري!

•

قيل لي في الدير قومٌ أدركوا سرَّ الحياةْ
غير أني لم أجد غير عقولٍ آسناتْ
وقلوبٍ بليت فيها المنى فهي رفاتْ
ما أنا أعمى فهل غيري أعمى؟..
لستُ أدري!

•

قيل أدرى الناس بالأسرار سكّان الصوامعْ
قلت إن صحّ الذي قالوا فإن السرَّ شائعْ
عجباً كيف ترى الشمسَ عيونٌ في البراقعْ
والتي لم تتبرقع لا تراها؟..
لستُ أدري!

•

إن تك العزلة نسكاً وتقى فالذئب راهبْ
وعرينُ الليث ديرٌ حبُّه فرضٌ وواجبْ
ليت شعري أيميت النسكُ أم يحيي المواهبْ
كيف يمحو النسكُ إثماً وهو إثمٌ؟..
لستُ أدري!

إنني أبصرتُ في الدَّيرِ وروداً في سِياجِ
قنعتْ بعدَ النَّدى الطَّاهرِ بالماءِ الأجاجِ
حولَها النورُ الذي يحيي، وترضى بالدَّياجي
أمِنَ الحكمةِ قتلُ القلبِ صبرا ؟ . .
لستُ أدري !

•

قد دخلتُ الدَّيرَ عندَ الفجرِ كالفجرِ الطَّروبْ
وتركتُ الدَّيرَ عندَ اللَّيلِ كاللَّيلِ الغضوبْ
كانَ في نفسي كَربٌ، صارَ في نفسي كروبْ
أمِنَ الدَّيرِ أمِ اللَّيلِ اكتئابي ؟ . .
لستُ أدري !

•

قد دخلتُ الدَّيرَ أستنطقُ فيهِ الناسكينا
فـإذا القومُ منَ الحيرةِ مثلي باهتونا
غلبَ اليأسُ عليهم، فهمُ مستسلمونا
وإذا بالبـابِ مكتوبٌ عليهِ . . .
لستُ أدري !

•

عجباً للنَّاسكِ القانتِ وهو اللَّوذعي
هجرَ النَّاسَ وفيهم كلُّ حسنِ المبدعِ
وغدا يبحثُ عنهُ في المكانِ البلقعِ
أرأى في القفرِ ماءً أم سرابا ؟ . .
لستُ أدري !

•

كم تمارى، أيُّها النَّاسكُ، في الحقِّ الصَّريحْ
لو أرادَ اللهُ أن لا تعشقَ الشَّيءَ المليحْ
كانَ إذ سوّاكَ سوّاكَ بلا عقلٍ وروحْ
فالذي تفعلُ إثمٌ . . . قالَ إني . . .
لستُ أدري !

•

أيُّها الهاربُ إنَّ العارَ في هذا الفرارِ
لا صلاحَ في الذي تفعلُ حتَّى للقفارِ
أنتَ جانٍ أيُّ جانٍ، قاتلٌ في غيرِ ثارِ
أفيرضى اللهُ عن هذا ويعفو ؟ . .
لستُ أدري !

•